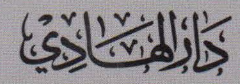
الإعلام سمة العصر

تلفزيون الواقع

الإنسان في قفص الصورة

عبد الحليم حمود





دار الهادي

تلفزيون الواقع

الإنسان في قفص الصورة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

ISBN : 978 - 9953 - 503 - 44 - 8





هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإعلام سمة العصر

تلفزيون الواقع

الإنسان في قفص الصورة

عبد الحليم حمود

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع



مقدمة

أن تكون إنساناً يعني أن تكون حراً، تمشي، تأكل، تتكلم... ومن أجل الحرية، حتى بتجلياتها البديهية، ناضلت أمم وكدحت لنيل هذا الشرف؛ شرف أن تتعلم وتمشي وتأكل وتتكلم بحرية.

لكن يبدو أن المدنية بحداثتها وتنظيراتها وتكنولوجيتها أبت إلا أن تثبت مقولة: «التاريخ يعيد نفسه» ولو في قالب ملون ومزخرف، دون مساس بجوهر إشكالية الحرية وصونها.

اليوم يتم انتهاك هذا المكتسب بواسطة كاميرات مبثوثة حول المتبارين في برامج تلفزيون الواقع بكافة أشكالها، فتخضع اللفتات والهمهمات والوشوشات لسطوة العين المراقبة، على أن تتكفل الأقمار الاصطناعية بنقل المشهد كاملاً، دون رتوش أو مونتاج، كل هذا يتم في طقس احتفالي جماهيري صارخ.

الطامة الكبرى تتجاوز ما ذكرناه، حيث أنَّ المشترك قد «رمى نفسه في التهلكة» عن سابق إصرار وترصد، لكن أن يتم قهرنا وإخضاعنا لمنظومة الكاميرات المعلقة فوق رؤوسنا في الشوارع والمكاتب والمتاجر والبيوت أحياناً، ففي الأمر تجاوز للمنطق التاريخي في «النشوء والارتقاء».

يقول الدكتور مدحت أبو بكر[1]: «تصور أن إنساناً ينظر إليك في

(1) مدحت أبو بكر، الفنون أيار 2004.

مكان عام أو في مكان عملك لفترة زمنية طويلة، بالتأكيد ستشعر بالضيف، وفوراً سوف تضع مجموعة من الاحتمالات لهذه النظرات المتلصصة عليك، وستنظر إلى ملابسك وتشك في كلامك وسلوكك معتقداً أن بعض الأخطاء حدثت وجعلت هذا الشخص ينظر إليك، وهذه النظرات سوف تصيبك بالضيق والتوتر وتجعلك تضعها في بؤرة اهتمامك بينما تضع أعمالك المهمة على هامش اهتمامك.. كل هذه النتائج تحدث عندما يصوب أحد نظراته إليك».

الاحتجاج على أنموذج تلفزيون الواقع وأيضاً كاميرات المراقبة في الأماكن العامة، يأخذ منذ سنوات الحيز الكبير من نقاشات فكرية وقانونية ودينية، ترجم بعضها على الأرض اعتصاماً وتظاهراً، تحديداً في أوروبا.

من هنا كان هذا الكتاب متنوعاً بأقسامه بين ما هو سجالي، واستعراضي تعريفي، ضمن مروحة من الآراء المتدرجة من أعلى نظريات الحرية إلى أسفل ملذات التلصّص.

الفكرة
ومراحل تطورها

أشكال «الواقع»

بعد خطوات كبرى لعدة شاشات عالمية نحو أسلوب «تلفزيون الواقع»، بدأت الفكرة بالتسلل إلى محطات عربية بأشكال وأساليب عدة، منها ما هو إنساني بحت ملامس للقضايا المسكوت عنها ومعبّر عن المشاكل الإنسانية والاجتماعية من خلال مواكبة الكاميرا للأحداث كما هي، لتقدم بشكل ليس ببعيد ما يعرف بالسينما التسجيلية التي قدمها يوسف شاهين ويسري نصر الله من مصر وجان شمعون ومي المصري من لبنان.

كما أن هناك شكلاً آخر من «تلفزيون الواقع» يغلب عليه الجانب المعلّب التجاري اللاإنساني الذي يحوّل الفرد إلى فأر في قفص ملون يشاهده الجميع من خلال محطة تبث مباشرة من المكان الذي تحتجز فيه هذه الكائنات الفرحة بالشهرة وحلم الوصول إلى النجومية ومستتبعاتها من مال ورفاهية وأضواء.

في فترة التسعينيات اعترض المؤلفون وكتّاب السيناريو في أميركا على الظلم والغبن الذي يطالهم مادياً ومعنوياً. في حين أن قصب السبق والبروباغاندا الإعلامية وحصد الأموال الطائلة يكون من نصيب الممثلين والمخرجين فقط، ما دفعهم إلى الاحتجاج والتحرك والتظاهر في إطار منظّم، وهو نقابتهم التي تتمتع بقوة وحضور مؤثر لنيل مطالبهم المتعلقة بحقوقهم المادية والمعنوية.

لكن أصحاب المحطات التلفزيونية الذين يبتغون أولاً وأخيراً الربح المادي ساءتهم مطالب المؤلفين، ففكروا في حلول ومخارج للأمر توفر عليهم أعباء مالية وتخلصهم من الخضوع من وقت لآخر لمطالب تقلق راحتهم وراحة جيوبهم. فكان تلفزيون الواقع حلاً مثالياً للمعضلة، فالأمر لا يتطلب سوى تسليط الأضواء على قصص حاصلة وتحصل وأصحابها هم «مؤلفوها» أنفسهم، مع الحاجة إلى مخرج وأحياناً إلى ممثلين إذا كانت القضية تحتاج إلى تغيير أبطالها الأصليين الذين قد تمنعهم ظروفهم الاجتماعية والقضائية من الظهور بوجوههم المعروفة. ويبدو أن الحل كان سحرياً، فكرّت السبحة وتنوعت أطيافها بين الجد والهزل والمسابقات.

الأخ الكبير

منذ بضع سنوات أطلت فكرة برنامج «بيغ براذر» أو الأخ الأكبر من خلال عدة شاشات عالمية. وفحوى البرنامج أنه يختار عدداً متساوياً من الشباب والبنات بناءً على امتحان معين أو بواسطة اختيار عشوائي لأسماء متصلين للمشاركة بالبرنامج، ثم يوضعون في مساحة من الإسمنت المقنّع بألوان الطلاء الزاهية والأثاث الشبابي ليعيشوا بضعة أشهر تحت رهبة سبعين أو ثمانين كاميرا تلاحقهم في السراء والضراء - 24/24 - ولا تتوقف عن «اللصلصة» عليهم إلا عند تخوم المرحاض، وهو المربع الوحيد الذي تراعى به حريتهم، علماً أنَّ الكاميريات تلاحقهم في نومهم، فتبقى الكاميرا كل الليل جاثمة فوق أسرتهم، وهي تعد عليهم شخيرهم وتقلباتهم، وربما أحلامهم وكوابيسهم!

تأكيداً على الأمر أثار قرار تصوير عملية ولادة حيّة ومباشرة على الهواء في إطار برنامج «الأخ الكبير» في هولندا جدلاً دينياً

واجتماعياً في البلاد. وقالت شبكة «سي أن أن» الإخبارية أنَّ قناة «تالبا» التي يملكها الملياردير جون دو مول قررت أن تبث سلسلة جديدة من برنامج تلفزيون الواقع «بيغ براذر» أو الأخ الأكبر. وهذه السلسلة ليست جديدة إلا أن ما يثير الجدل فيها هو تصوير واحدة من المشاركات وهي تلد طفلها مباشرة على الهواء. وأكد متحدث باسم وزارة الشؤون الاجتماعية الهولندية ما نشرته الصحف المحلية أنَّ مفتشين يدرسون طلب القيمين على البرنامج. ويدين اليمين الديمقراطي الحاكم في هولندا فكرة تصوير عملية الوضع ببث حي على الشاشة إلا أنَّ المرأة الشابة الحامل التي تبلغ 27 عاماً قالت لصحيفة «تليغراف» أن طفلها «سيكون فخوراً بذلك لاحقاً»(1).

انتفاضة

لم يمر تلفزيون الواقع مرور الكرام، فواجه سيلاً عارماً من النقد المقنع من قبل الكثيرين ممن هم مختصون بالنقد التلفزيوني. ثم كبرت كرة الثلج لتصبح القضية محوراً لنقاشات كتّاب ومفكرين وسياسيين وقانونيين بحثوا في شرعية الأمر ومدى مواءمته لفكرة حرية الفرد التي يقول المجتمع الغربي أنه حريص عليها. وقد كانت أمواج هؤلاء النقاد المعترضين تتكسّر عند صخور الجماهيرية الكبرى للبرنامج الذي لاقت فكرته الجديدة شعبية خولته الاستمرار برغم أنف الجميع.

لكن مع الوقت بدأت الفكرة بالدخول في طور الرتابة، وراح المشاهدون يتململون من إيقاع الحلقات الرتيب، فكان أن تشظت

(1) البلد 30 ـ 8 ـ 2005.

الأفكار لتكون كاميرا الواقع في مزرعة أو حلبة مصارعة أو دار أزياء...

ملء الفراغ الموحش

يرى الكاتب الفرنسي فيليب موريه في «تلفزيون الواقع» أحدث محاولات التلفزيون ليحل مكان الحياة ويملأ الفراغ الذي تركته في مجتمعات مادية موحشة، إذ أضحى التلفزيون يصنع الواقع، واقعه وليس واقع الحياة، فالناس أصبحوا مشابهين لما يشاهدونه على شاشاتهم.

يقول محمد حجيري[1]: هذا ما يفعله برنامج ستار أكاديمي على شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال، قد نسخر من تصرفات طلاب الأكاديمية ولكنهم في الواقع أصبحوا قدوة وحلماً للشباب العرب. إنهم صورة، وعصرنا يفضل الصورة على الشيء، النسخة على الأصل، التمثيل على الواقع، المظهر على الوجود، وما هو مقدّس بالنسبة إليه، ليس سوى الوهم، أما ما هو مدنّس فهو الحقيقة، وبالأحرى فإنَّ ما هو مقدس يكبر في عينيه بقدر ما تتناقض الحقيقة.

وإذا كان التلفزيون مكوناً أصلاً للتسلية، وهو متفق تماماً مع غايته، فإنه يدخل الانسجام في الأمور المتنوعة، يحول الواقع إلى خرافة. وفي هذا المجال، لاحظ الكاتب ليود «رأيت كيف أصبحت مشاهدة التلفزيون لدى معظم الناس عادة أكثر منها فعلاً تميزياً وشعورياً». إن الناس في أنحاء العالم يشتركون في مشاهدة الأحداث

(1) محمد حجيري، البلد 7 ـ 1 ـ 2006.

العالمية التي تتكشف أمامهم لحظة بلحظة. ولا تقتصر هذه المشاركة على أخبار الحروب والنزاعات الكبرى والثورات والكوارث التي تحدث في بقاع العالم المختلفة، بل إنها تشمل أحداثاً تفصيلية ثانوية قد لا تكون ذات دلالة مهمة. إنَّ نظرة سريعة إلى الوقائع التي ينقلها التلفزيون للأفراد والمجتمعات في أنحاء العالم بمختلف تفصيلاتها ومواطن الإثارة والمبالغة فيها، مثل الحروب والمجاعات والمحاكمات والمطاردات، تؤكد أن التلفزيون إنما ينقل ما يسميه بودريار «عالم الواقع المفرط».

وفي رأي الباحث شولمان كان التلفزيون «العين النهمة»، في حين كان في رأي الآخرين «العين الشريرة» التي تدمر ليس الأفراد الذين يحملقون فيها فحسب، ولكن أيضاً البنية الاجتماعية برمتها.

«ستار أكاديمي» هو العين النهمة في الفراغ الجماهيري. ما يفعله التلفزيون هو أنه ينشر ثقافة العابر، أو ثقافة المتخيل، ثقافة الناس جميعاً، إنها ثقافة من دون ذاكرة، كل مشهد منها ينسيك ما قبله، هكذا هي الحياة أيضاً.

سادية المشاهد[1]

في زمن التحولات الكبرى تستمر الشاشة الصغيرة في إثارة دهشتنا. نقف إزاء تحولها السريع مبهورين، نحاول التفتيش عن زاوية محايدة ننظر إليها منها. كل يوم تنزع وجهاً لترتدي آخر، وأحدث وجوهها المثيرة للجدال تلك النزعة التي تبدو متغلغلة في الكثير من البرامج، والتي تحول التلفزيون إلى وسيلة ترفيه تؤلم في

---

(1) مجلة «بسيكولوجي» أعيد النشر في النهار 18 ـ 4 ـ 2005 ترجمة سيلفانا الخوري (بتصرف).

سبيل إمتاعنا وإشباع رغباتنا الدفينة في رؤية الآخر ذليلاً ضعيفاً. وبين الضحية المهانة والجلاد الذي لا يرحم يستمتع الجمهور بقتل الآخر، إلى الآن، معنوياً. أعسانا دخلنا زمن سادية الشاشة؟

إلى البرامج المدرجة تحت شعار الوثائقي وتستخدم مشاكل الناس ومآسيهم مادة للعرض والاستعراض، ثمة موجة برامج تجتاح التلفزيونات الغربية في معظمها من نوع «تلفزيون الواقع» يتعرض فيها المشاركون لأسوأ أنواع التجارب التي تضعهم في مواقف أقل ما يقال فيها أنها مذلة. برامج نشارك فيها لكي تساء معاملتنا: أوامر، ضغوط جسدية ونفسية نتحملها كلها مبتسمين، نتفوق على أنفسنا لنكمل المغامرة... قواعد الربح الجديدة تزداد قسوة تحت نظر المشاهد المحبذ. «هم سيعانون وأنتم ستعشقون ذلك» يقول جينيريك مقدِّم أحد البرامج الفرنسية الذي يجمع شخصيات في ثكنة عسكرية يخضعون لتدريبات قاسية.

في المقلب الآخر من الشاشة يبدو المشاهد مرتاحاً إلى العنف والقسوة المخيمين على الأجواء، إذ ليس هو من يتلقى الأوامر والقرارات الاستبدادية في اللعبة، إنما أيضاً لأنه يؤثر بالمقارنة لوضعه الخاص المطمئن. لم يبقَ التلفزيون يثير غيرتنا بل أمسى يجعلنا راضين عن أوضاعنا التي نقول لأنفسنا، رغم كل شيء، هي أفضل مما نشاهده. طريقة أخرى لتفعيل عملية التماهي عبر إعادة النجوم إلى أحجامهم «الطبيعية» وانتزاع تلك الهالة التي غالباً ما يحاطون بها والتي تجعل منهم أنصاف آلهة، ينزلون إلى الحالة البشرية الطبيعية، إلى العادي والتافه والمبتذل، إلى عالم كل يوم، فلا يبقى المشاهد يعاني عدم انتمائه إلى العالم المسيطر.

لكن من ناحية ثانية تستدعي هذه البرامج غرائز واندفاعات لا يمكن القول إنها محمودة إلى هذه الدرجة، وفي أعلى القائمة التلذذ برؤية الآخر يعاني، بينما نحن في مأمن. وفي هذا الأمر يعتبر بعض المحللين أن التلفزيون ليس هو الشرير بل المشاهد هو السادي الذي يمتعه شقاء الآخرين وهو قابع في سريره. التلفزيون فَهِمَ جيداً هذا الأمر، ويستغله أكثر فأكثر عبر توجهه إلى الطفل المنحرف النائم فينا الذي يستمتع لرؤية الصغير مهاناً أمام الجميع. فبحسب التحليل النفسي الفرويدي نبقى مطبوعين بذكريات من الطفولة تجسد طفلاً يتلقى الضرب من شخص أكبر منه. ولهذا الأمر في اللاوعي الدلالة الآتية: لأن الشخص الكبير (أب، أم، أستاذ) يضرب الآخر فهذا يعني أنه يحبني أنا. في هذه الطريقة نتعلم ربط الشعور بأننا محبوبون عبر إذلال الآخر، والضرب الرمزي الذي يتلقاه هؤلاء المشاركون من خلال السخرية اللاذعة يوقظ فينا سادية طفلية ويجعلنا نشعر بأننا محبوبون. لكن هل يعني ذلك أن المشاركين مازوشيون؟ كلا، إنهم وسائل فقط يجهلون الاستمتاع الذي يثيرونه فينا!

جيرار تيكسييه، طبيب ومعالج نفسي، يقول إنَّ التلفزيون يعتمد الطريقة التي يسير وفقها «الطفل الذي يكتشف لذة تعذيب الحشرات أو الحيوانات الأليفة الأضعف منه. إنه التلذذ بالقوة لدى المشاهد القدرة على إظهار أو إخفاء أحدهم بكبسة زر. هو في موقع المعتدي أكثر منه في موقع المعتدى عليه، وفي هذا هو تنفيسي»[1].

لكن هذه البرامج التي تركّز على أبعاد الأضعف أو الأحرى الأقل تكيفاً، لحياكة المكائد، الاستراتيجيات الشخصية، ضرورة أن يكون

(1) المرجع السابق.

أداؤك مجلياً، لكن أيضاً تحمل المناكفات والأوامر والقرارات التعسفية... قد تكون لها عواقب أكثر انحرافاً من تنفيس بسيط من خلال شاشة وسيطة. فالمشاركون يقبلون بمكابدة كل شيء وأي شيء على أمل بلوغ المركز الأول. من هنا يتخوف بعض علماء الاجتماع من أن هذا الأمر قد ينتج منه تأويل منحرف وفقاً له: لو قبلنا كل شيء نتمكن من النجاح اجتماعياً، وهذا الأمر ليس صحيحاً تماماً لأن النجاح يخضع لمعايير متعددة (المستوى الدراسي، المحيط الاجتماعي الذي نشأنا فيه، الجنس...) ونبني سلوك عبدي ودوني قد يكون تحديداً سبب إقصاء من وظائف تتطلب مستوى معيناً من تحمل المسؤولية حيث عقلية أخرى تكون مطلوبة.

في كاستينغ «سوبر ستار» مثلاً يتم التوجه في شكل مباشر إلى الغرائز العدوانية لدى جمهور سيطلق مكبوتاته بفضل الضحك من دون أن يكون هناك ضحايا بشرية، لا قتلى ولا جرحى ولا استغلال مباشراً للألم الإنساني. لكن البرنامج مشغول لجعلنا نضحك من الآخر الذي وضع نفسه في موقف يعرض عيوبه في مواقف مذلة مثيرة للسخرية. إذلال، استغلال المعاناة، الجهل، أذى من دون مبرر، «زوم إن» على أشخاص في أوضاع مذلّة... في مكر دخلنا عصر التلفزيون السادي، عبر دفع أشخاص ذوي صعوبات إلى البوح، في استخدام استيهامات مشاهير والرغبات النرسيسية لدى أفراد مستعدين لكل شيء للخروج من الظل. هذا التلفزيون يتوجه على نحو مباشر إلى غرائزنا الأكثر انحرافاً التي قد لا تجعلنا أسوأ لكنها تأتي لتوقظ وتبتذل السلوكيات التي يحاول علم الأخلاق تحديداً تهذيبها ورفعها صوب الأعلى.

أما نحن المشاهدون فنصير الشهود المبهورين بمآس لا تعنينا. نحن متلصصون إنما في طريقة شرعية لأن الآخر يأتي بنفسه ليعرض نفسه أمامنا، بكل سرور وباسم الحقيقة، إذ يجعلوننا نعتقد أننا سنشاهد الحقيقة في عريها الكامل، في حين أن الحقيقة التي تحرك المشاركين لا أهمية لها سوى من خلال المشاعر التي قد تثيرها في المشاهد. المشاركون «مشيأون» لأن توقعاتهم وآمالهم في خدمة متعتنا. إذلال، خيبة، انكسار نظيرنا هذا يجعلنا نستمتع بهذا النوع من البرامج! تماماً كالروماني في العصور القديمة الذي كان ينتظر تلك اللحظة التي يتهيأ فيها الأسد للانقضاض على فريسته فوق الحلبة. نحب قريبنا مثلما نحب نفسنا، في شكل سيىء وفي الغالب مطبوع بالعدوانية، وإذا كان هذا النوع من البرامج يعرف نجاحاً مماثلاً فلإرضائه ذاك التناقض الوجداني.

لكن أين المشاهد العربي من كل ذلك؟ هل هو مثقف بما يكفي في هذا المجال؟ هل يعي تماماً أن كل ما يجري ليس سوى لعبة أدوار؟ هل يشاهد الناس عندنا هذا النوع كوسيلة ترفيه كما يشاهدون أي مسلسل آخر؟ هل يدركون فعلاً أنه تلفزيون أكثر مما هو واقع؟ في الواقع إنه «شو» (عرض) لكنه لدى فئات واسعة في العالم العربي لا يشاهد على أنه كذلك. فالمشاهد العربي بخلفيته الثقافية والاجتماعية والتاريخية وبطبائعه لا يتلقى هذا النوع من البرامج مثلما يتلقاها المشاهد الفرنسي أو الأميركي، ويبدو في بعض الأحيان عاجزاً عن التعامل معها في حس نقدي ملائم.

على ضفتي الشاشة الصغيرة، هذه الوسيلة الإعلامية الشابة جداً والحديثة جداً والتي أضحت سريعاً مركزية في المجتمع، تساؤلات

كثيرة. من ناحيتنا نبدو كمشاهدين عاجزين عن إدراكها، نراها تلت منا، تسبقنا، تتخطانا وكلما ظننا أننا قبضنا عليها تطالعنا بوجه جديد يفاجئنا. أمس كانت الشاشة تبهر أما اليوم فهي تبهر بقدر ما تقلق، وستظل تفعل إلى اليوم الذي سنكف فيه عن التعامل معها على أنها إما شرّ مطلق أو خير مطلق، بينما المطلوب حد أدنى من حس نقدي لكي نخرج من موقع المتلقي السلبي إلى موقع المتفاعل المدرك.

عرض بانورامي

كانت تسعينات القرن العشرين مرحلة مهمة لبلورة هذه البرامج، وذلك بعد أن قدم جيم كاري الممثل الأميركي فيلمه الشهير «ترومان شو» ودارت فكرته على مخرج معروف يسعى إلى تقديم نوع جديد من الدراما بعد أن مل الجمهور الأفلام والمسلسلات. ويتفتق ذهن المخرج عن فكرة غير مسبوقة تتمثل في تقديم دراما واقعية بطلها شخص حقيقي يتم تصويره دون معرفته. يلتقط المخرج طفلاً من أحد الملاجىء ويضعه في جزيرة ليبدأ تصويره منذ الصغر إلى أن يصبح رجلاً. كان الأب والأم ممثلين، ومثلهما الأصدقاء والجيران وزملاء العمل والزوجة. وعرف الجميع السر إلا الشخص الذي كان يظن أنه يعيش حياة حقيقية ثم اكتشف أن كل ما حوله تمثيل.

بعد عرض الفيلم بأعوام قليلة، قررت إحدى القنوات الفرنسية تكرار التجربة، وأعلنت عن مسابقة للشباب وللشابات لتقديم عرض فني واقعي مبتكر. كانت شروط المسابقة واضحة سهلة لكنها قاسية: الإقامة في فيلا بضعة أشهر لا يحق لهم الخروج منها على الإطلاق.

وعلى كل متسابق أن يمارس حياته الطبيعية على مرأى ومسمع كاميرات القناة التي ترصد كل ما يحدث[1].

وكالعادة، استنسخ بعض الفضائيات العربية الفكرة فظهر برنامج «عالهوا سوا» و«ستار أكاديمي» ثم بدأ تقديم عدد من البرامج التي تنتمي إلى تلفزيون الواقع واهتمت قناتان عربيتان بهذه النوعية من البرامج هما القناة الأولى في دبي (One TV) وقناة «أم بي سي» الرابعة التي عرضت برنامج «البيت البديل» الذي يدور على انتقال زوجة من بيتها للإقامة في منزل عائلة أخرى وخضوعها لكل ما تفرضه العائلة الجديدة من مطالب وشروط.

أما قناة One TV فتعرض ستة برامج لعل أبرزها Starring الذي يقدمه النجم الأميركي سيلفستر ستالون وشوغر راي ليونارد، ولأن ستالون نال شهرته الفنية من سلسلة أفلام «روكي» التي ظهر فيها ملاكماً، فكان من المنطقي أن تدور حلقات البرنامج على الملاكمة، وذلك من خلال 16 ملاكماً طموحاً في معسكر للتدريب، يتدربون للفوز بجائزة البرنامج، التي تبلغ مليون دولار. أما الهدف الوطني من البرنامج فهو التأكيد على الحلم الأميركي وإمكان تحقيقه رغم تغيّر الظروف الحالية عن تلك التي كان يقال فيها أن أميركا هي أرض الأحلام.

ومع أن المباريات التي يقدمها البرنامج حقيقية، نشاهد في كل حلقة، حياة المتنافسين منذ اختيارهما حتى إعلان النتيجة بفوز أحدهما، مروراً بالتدريبات وحياة كل ملاكم مع أسرته وأحلام كل منها والسعادة بالفوز أو البكاء بعد الهزيمة. وبذلك يمتد مجال

(1) أحمد الجهيني، البلد 25 ـ 5 ـ 2005.

البرنامج إلى ما هو أبعد من حلبة الملاكمة، ليتمكن المشاهد من معرفة الحياة الحقيقية من مصدر حقيقي هو حلاوة الانتصارات ومرارة الهزائم.

أما برنامج «تزييف» فتدور فكرته على قدرة المرء على التغيير واكتساب المهارات[1].

في حين يركز برنامج «التغيير المتطرف» على إمكان تحقيق الأحلام، وفيه يتم اختيار شخصين في كل حلقة وينال هذان المحظوظان فرصة العمر للمشاركة في تغيير حياتهما. وكذلك هو Survivor الذي يشارك فيه 16 متسابقاً ينقلون إلى موقع بعيد مع بعض الملابس والمأكولات، وفريق التصوير، ويقسّمون فريقين متنافسين، ومع كل حادثة أو كل ثلاثة أيام يطلب من الفريق الخاسر استبعاد أحد أعضائه، وعندما يصل عدد المتنافسين عشرة يتم دمج الفريقين ويستمر السباق ليحصل المشترك الذي يظل حتى النهاية على مليون دولار.

وعلى النمط عينه، تسير أحداث برنامج «سباق الأمازون» الذي يشارك فيه أحد عشر فريقاً ينطلقون إلى أنحاء العالم من أجل الحصول على جائزة نقدية مقدارها مليون دولار.

أما برنامج «المعبود الأميركي» الذي تديره بولا عبدول وراندي جاكسون وسايمون كويل فيتم السباق فيه بمشاركة الجمهور وتدور فكرته على اختيار نجم شعبي محبوب من آلاف الأشخاص، ومن طريق الاتصالات الهاتفية يشارك الجمهور في شهرة هذا النجم

(1) المرجع السابق.

المرتقب أو ذاك ليتم حصر المتنافسين في ثلاثة أشخاص، ثم يختار أحدهم في الشوط الأخير.

ولعله من البديهي أن نقول إنَّ الغالبية العظمى من هذه البرامج تنتج في أميركا، وأن محاولات تقليدها في التلفزيونات العربية كثيراً ما تكون مشوّهة، ليس بسبب نقص الإمكانات العربية بل لأن نمط الحياة في الولايات المتحدة يجعل هذه البرامج مقبولة وطبيعية خلافاً لما هي عليه عندنا[1].

الأبعاد النفسية

في قراءة نفسية اجتماعية قام د. مدحت أبو بكر[2] بتحليل الشكل «الجديد» الوافد إلى عالمنا العربي، معتبراً أن برامج تلفزيون الواقع نجحت في جذب ملايين المشاهدين إلى المتابعة، حتى أولئك الرافضون أصبحوا ـ إيحائياً ـ منجذبين إلى المشاركة في هذه الأحداث الفضائية، إما بالمتابعة لمحاولة اكتشاف أسرار جاذبية هذه البرامج التي يرى الرافضون أنها الباب المفتوح على دنيا الملل والضجر والسأم، وإما بالمشاركة الحوارية مع الذين أصيبوا بالتهابات مشاهدة هذه البرامج وأصبحوا مدمنين يتعاطون الجرعات اليومية، وانشغلوا عن متابعة مختلف القضايا الحياتية محلياً وعالمياً.

والذين أخطأوا حين أكدوا أن هذه البرامج للمراهقين فقط، تنازلوا عن قناعاتهم السابقة، عندما اكتشفوا أن هذه البرامج أذابت الفوارق بين الطبقات، وهدمت الجدران العازلة بين المراحل العمرية.

---

(1) المرجع السابق.
(2) مدحت أبو بكر، الفنون أيار 2004.

وإذا كان برنامج «عالهوا سوا»، تأرجح بين جذب جموع المشاهدين، وانتقاد البعض رغبة المتابعة المتحمسة له، وإذا كان برنامج الرئيس توقف بعد خلط مجموعة من الأوراق السياسية والإعلامية، وتأكيدات البعض لتعرض أسرة فضائية M.B.C في البحرين لضغوط، وتأكيد المسؤولين في الفضائية على أن توقف البرنامج جاء تلبية لرغبة جماهيرية جعلت الفضائية تستجيب لأذواق الرافضين للبرنامج، ورغم الحيرة التي انطلقت إليها تفسيرات المشاهدين، فإن البرنامج توقف ليتحول متابعوه إلى مساندة التلفزيون الواقعي الأكثر تأثيراً وجاذبية «ستار أكاديمي».

الحياة المنطلقة من دون قيود، حلم إنساني مستحيل، الحرية الكاملة وفكرة ممارسة الحرية بعيدة عن القوانين والقيود المجتمعية، حلم إنساني مستحيل، وتأتي برامج تلفزيون الواقع لتمنح الحالمين جواز المرور إلى الممارسة الواقعية للحلم الذي كان مجرد فكرة لا تتحقق إلا في أحلام اليقظة، أو عندما يصبح العقل الباطن هو سيد الموقف، عندما ينام العقل الواعي، وتصبح ممارسة المكبوتات حقاً لكل مواطن.

وتعدد الفئات العمرية التي تتابع هذه النوعية من البرامج يوضح الرغبة في التعامل مع الحلم المستحيل، أو ممارسة الحرية الكاملة.

الأطفال أصبحوا يحددون مواعيد استقبال المدرسين الذين يحضرون لإعطائهم دروساً خصوصية قبل أو بعد موعد البرنامج، بل يترك هؤلاء الأطفال مدرسيهم ويفرون فرار العصافير إلى مكان يكثر فيه القمح والحبوب اللذيذة، وأصحاب هذه الفئة العمرية على أتم استعداد للتضحية بجميع المتع والإغراءات التي قد يقدمها لهم الأهل من أجل خلعهم من أمام هؤلاء الشباب وتلك الفتيات

المتحررين والمتحررات المنطلقين والمنطلقات من دون قيود أو منغصات. كل هذه الممارسات السلوكية، شعر الأهل بالفطرة أنها خطر على أطفال اليوم.

إذا كانت محطات الغرب تراعي ما يقدم للأطفال، ولا تزال محطات عديدة تضع تصنيفات للأعمال الدرامية والبرامجية التي يمكن لجميع أعضاء الأسرة مشاهدتها، والأعمال التي يفضل إبعاد الأطفال عنها، إذا كان هذا سلوك المسؤولين عن محطات التلفزيون الغربية، فلا بد أن نسبق نحن هذا السلوك، أو حتى نقلده من باب الاقتداء النابع من عشق وتقليد كل ما هو غربي، أو أننا ننطلق مقلدين بسعادة كل الرذائل، وندير ظهورنا بغضب لكل الفضائل؟!

إنَّ السلوكيات العاطفية الواضحة في «ستار أكاديمي» تجذب الأطفال إلى منطقة السلوكيات المتحررة من القيود الاجتماعية العربية، وتترك بصماتها واضحة على الفكر المستقبلي والسلوك المستقبلي لأطفالنا الذين يجدون في هذه السلوكيات الحلم المستقبلي المحرم والممنوع في مجتمعاتهم، الشعور نفسه تمارسه فئات المراهقين والشباب الذين ينجذبون واقعياً نحو هذا الحلم، وهم أكثر الفئات تقبلاً لهذه السلوكيات.

نماذج من
«الأخ الأكبر»

جولة ميدانية

الأفكار التي تتناسل من منظومة تلفزيون الواقع، تكاد لا تتوقف عند مجال أو حدود، والأمر منوط بالمحطات التلفزيونية وابتكاراتها، علماً أنَّ تجاوز ما قد تتصوره المخيلة، سببه الأرباح الطائلة التي تُجنى في هذا المضمار، مما يسهّل الإنفاق الخيالي على تلك البرامج، إن كان لناحية الإعداد، أو لناحية الديكور، وصولاً إلى الجائزة الكبرى.

لا يمكننا الحديث عن تلفزيون الواقع دون استعراض عيّنات مما قُدِّم في الغرب والشرق.

توصيف البرنامج وآلية عمله قد لا تكفي لاكتمال الصورة، لذلك حاولنا استعراض البرامج، وما رافقها من كتابات نقدية، وأحياناً ردود أفعال «الجماهير».

نبدأ من محطة «ريالتي.تي.في» كونها قناة مبنيّة على أساس «الواقع».

«ريالتي تي. في»

من بين المحطات العالمية التي اتخذت من فكرة تلفزيون الواقع منهجاً لكل برامجها من دون استثناء محطة «ريالتي تي في»، التي اختارت لاسمها أن يكون على مسمى دون لف ولا دوران.

تتنوع برامج المحطة وتتشعب، فتقدم «أشرطة» مسجلة من قبل

رجال الشرطة أو من خلال صحافي يرافقهم، وهي «أشرطة» لعمليات مداهمة ومطاردة وتوقيف لصوص وجناة ومدمنين ومشاغبين مع ما يحمله الأمر من مخاطر وتشويق.

كما تقدم المحطة تسجيلاً لشهادات بعض الناس حول علاقتهم بالماورائيات والأشباح وغيرها. وهناك برنامج «خائنون» الذي يلاحق الناس إلى بيوتهم، على أن يكون التحرك والمراقبة حاصلين بناءً على طلب من الطرف المخدوع، شرط أن يكون هذا الأخير قد وقع على موافقته المسبقة على عرض الشريط من دون أي اعتراض. وهنا نلمس الوجه المرعب لهذا النوع من البرامج الذي ينتهك خصوصيات البشر ويحول فضائحهم إلى مادة مسلية لمشاهدين «يقرمشون» الفوشار وبطاطا «تشيبس» ويشربون المياه الغازية.

الكاميرا الخفية

إن الأشرطة المنزلية التي يرسلها الناس إلى البرامج الساخرة لتعرض ضمن الفقرة المتخصصة بالأحداث المفاجئة والعفوية يمكن أن تندرج ضمن عنوان تلفزيون الواقع، وربما هي أكثر واقعية من غيرها، ذلك أنها غالباً ما تصور بهدف الاحتفاظ بها ضمن أرشيف العائلة، وهي في الغالب تصور بكاميرات غير متخصصة، ما يضفي جواً من العفوية والصدق الذي يفترض مواءمته لعالم تلفزيون الواقع.

أما «الكاميرا الخفية» برغم الافتعال المتعمد للحدث، فيمكن أيضاً أن نعتبرها من عائلة تلفزيون الواقع، وعلى الأرجح هي فرد غير مستساغ ضمن هذه العائلة التي أخذت اسمها من أحداث حصلت وتحصل دون تدخل محوري أو جوهري في السياق الدرامي

للأحداث، وربما علينا أن نكون أكثر دقة لنقول أن الجزء المصنوع والمعد من «الكاميرا الخفية» لا ينتمي إلى تلفزيون الواقع، أما رد الفعل فينتمي إليه.

«حكاية مستودع»

إنه الحدث الإعلامي الأول في فرنسا. Loft Story (حكاية مستودع) حلقات تلفزيونية تبثها محطة M6، شاهد الحلقة الأولى منها أكثر من ستة ملايين شخص، ويقترب عدد مشاهدي الحلقات الأخيرة من الثمانية ملايين، ما يجعل من M6 المحطة الأولى المسيطرة على المشهد التلفزيوني الفرنسي، وفي مقدمها القناة الأولى.

لا يقوم «Loft Story» على فكرة جديدة. إذ يمكن اعتباره النسخة الفرنسية من البرنامج الهولندي «big brother» أو «الشقيق الأكبر» والذي سارعت دول أوروبية عديدة منها ألمانيا وأسوج إلى عرض نسخ محلية منه. العنوان مأخوذ من رواية «1984» للكاتب البريطاني جورج أورويل، والتي تصور شعباً يخضع بأكمله لأجهزة تنصت وتصوير، مما يفرض عليه رقابة دائمة حتى في حياته الحميمة.

في فرنسا، اختارت M6 أحد عشر رجلاً وامرأة غير متزوجين تتراوح أعمارهم بين الثانية والعشرين والثامنة والعشرين. خمس نساء وستة رجال لا تجمعهم معرفة مسبقة اختيروا من بين 38 ألف مرشح. يعيش هؤلاء طوال فترة مشاركتهم في البرنامج في منزل فسيح يطل على حديقة وحوض سباحة، بينما «تتلصص» عليهم 26 آلة تصوير موزعة في جميع الأمكنة ما عدا المرحاض. تضاف إليها آلات تنصت لتسجيل كل كلمة يتلفظون بها.

وخلال البرنامج الذي يستمر عرضه عشرة أسابيع، يتم استبعاد المشاركين الواحد بعد الآخر حتى لا يبقى في النهاية إلا رجل واحد وامرأة واحدة سيربحان منزلاً بقيمة ثلاثة ملايين فرنك فرنسي شرط أن يتمكنا من العيش فيه معاً ستة أشهر متتالية.

وتعرض M6 كل ليلة مقتطفات من التسجيلات المصورة، بينما يستطيع المشاهدون متابعة النقل الحي المباشر للبرنامج على نحو متواصل ليلاً ونهاراً عبر شبكة الإنترنت على الموقع الرسمي التالي (www.loftstory.com).

الذين يسعدهم البرنامج يترقبونه بفارغ الصبر. أما الذين يزعجهم فقرروا التكفّل بالموضوع على طريقتهم الخاصة. إذ هاجم المئات منهم مقر التلفزيون وتسببوا في خسائر مادية. أما الأوفياء لأدق التفاصيل، فأصروا على أن يصطحبوا من بيوتهم سلات الفضلات العائلية وقذفوا بها مدخل التلفزيون في منطقة نوييه بالضاحية الغربية للعاصمة الفرنسية.

ويستمد المعارضون تشددهم من شعار «الاستثناء الثقافي» لبلد فيكتور هيغو وجان بول سارتر والذي يرفض الذوبان في العولمة الثقافية، مثلما تذوب بقية شعوب العالم، وتبنت هذا الرفض مؤسسات ووسائل إعلام واسعة الانتشار منها إذاعة «فرنس إنتير».

«الأخ الأكبر» يصدم إفريقيا

منذ الخامس والعشرين من شهر آذار 2004 أصبح الأخ الأكبر[1]، العرض الحقيقي بامتياز، واقعاً في القارة الأفريقية، سبع وعشرون

(1) الفنون، تموز 2004.

كاميرا تصور طوال اليوم رجالاً ونساء أتوا من جميع دول جنوب إفريقيا، توقع الكثيرون قفزة ثقافية إلى الأمام، هذا «البرنامج سيسمح لنا برؤية نقدية لأنفسنا، كما سيساعدنا على التعارف فيما بيننا أكثر»[1].

هذا ما قاله كولي أوموتوسو الأديب النيجيري، ومدير اختيار الممثلين، ولعل الحجة القاطعة هي هذا التقارب التلفازي بين الشعوب، والوصول إلى نوع من الأفريقانية الممتعة. وعلى هامش النقاشات حول هذه «المغامرة الإنسانية الرائعة»، فأنَّ دار الإنتاج إينديمول تفرك يديها لأنه على مدى خمس سنوات، ومنذ اختراع هذه الفكرة، لم تكتمل مكونات النجاح كما هي عليه الآن. خلف واجهته المتعددة الثقافات، نشر هذا البرنامج رائحة الفضيحة من غانا إلى جنوب إفريقيا. وخلافاً لكل التوقعات، فأنَّ الأخ الأكبر ذا الصلصة الأفريقية، الذي فيه خليط من الجنس والكحول، والفولكلور الإثني، يبقى الأكثر بهارات من منافسيه الدوليين.

البرنامج الذي صوِّر في راندبورغ جنوب أفريقيا، يشتغل على أساس صيغته المعروفة حيث يغلق على اثني عشر شاباً وشابة، كل واحد يمثل بلداً، في فيلا مساحتها 270 متراً مربعاً تضم حديقة مساحتها 70 متراً مربعاً، لمدة ثلاثة أشهر، بإمكان كل المشاهدين المشتركين في قناة شبكة M التقاطه في أربعين دولة من القاهرة إلى الكاب، وبشكل مستمر. كما بإمكان المشاهدين متابعة برنامجهم حتى ولو خلد المتبارون إلى النوم أو أخذوا حماماً، أو اكتفوا بالجلوس من دون فعل شيء يذكر، وذلك لمدة ثلاثين دقيقة من

(1) المرجع السابق.

العرض اليومي، مرفوقة بحلقة خاصة يوم الأحد على القنوات الوطنية. فما على المتتبعين إلا التصويت عن طريق بعث رسالة SMS، أو على شبكة الإنترنت لاختيار مرشح واحد كل أسبوع، وكذلك يفعلون. ويقول كارل فيشر: «منذ انطلاق البرنامج، يصلنا يومياً ما بين 10000 و12000 رسالة SMS من كل إفريقيا»[1]. ويجد مدير القناة المشفرة صعوبة في إخفاء فرحته أمام هذه الأرقام، إذ سيجلس قرابة 20 مليون مشاهد مشدودين كل يوم أمام تلفازاتهم، ولا يملكون سوى التمتع بمجريات أحداث غير متوقعة.

«أبي» و«برونا» تمثلان باحترام بلديهما أفريقيا الجنوبية وأنغولا، لقد وصلتا بلطف إلى المسكن، وهما تحملان علمي بلديهما من بين البضائع، أما ستيفان من ناميبيا، فقد حمل معه تمثالاً صغيراً ودمية بألوان بلده. وبعد أيام من التصوير والتنقل من الصالون إلى الباكوزي، يشكو كل واحد من شدة الشوق إلى عائلته وبلده، ولتفادي إحساسهم بالملل، عمل قسم الإنتاج على تقديم ورشة لمجموعة من الأنشطة التربوية مثل صنع الأقنعة التقليدية، أو مسابقات في لعبة الكريكيت، أو في تنفس الريشة بعجالة، حقق برنامج الأخ الأكبر نجاحاً باهراً.

لقد حصل تحول راديكالي في طريقة تناول الإقصائيات الأولى ليوم 22 يونيو، حيث كان على المرشحين أن يتذكروا دائماً الهدف الذي من أجله يوجدون أمام الكاميرات، وفي حالة ما إذا نسوا ذلك، فالقدم المشهور، مارك بيلغريم يذكرهم باستمرار بالوصفة السحرية: «لكل قارة رابح»، والرهان طبعاً هو 100000 دولار، بالإضافة إلى

(1) المرجع السابق.

مهنة بمثل هذه العروض لكل فائز نهائي أو فائزة في الإقصائيات. ومهما كانت وظيفتهم الأصلية: خبير في الحسابات أو طبيب شرعي، فالكل يريد أن يمتهن عالم الأغنية. ولذلك بدأوا في الغناء بكل قوة في مسكنهم، إلى درجة أنهم أثاروا غيظ جزء من الجمهور، وعلقت بنوع من الحقن، إريكا جيبهارت على ذلك بجريدة «اليومية الناميبية»: هل هذا برنامج حقيقة، أم مباراة في الغناء؟» إلا أن العدو الأول لكل مرشح، هو الملل الذي يمكن أن يثيره، ولذلك لوحظت بعض المشادات واللمزات.

خلال أول اختيار، كان الاصطدام، «إذا جرى إقصائي، فلأنني لا أشرب الكحول ولا أدخن، كما أرفض أن أبدو عارية. وإذا أرادوا مني ذلك، فعليهم دفع الثمن»[1]، بهذه العبارة تحدثت الفتاة المثيرة للجدل (برونا) وهي نموذج من أنغولا جرى إقصاؤها، وخير دليل على ذلك، هو المشاحنات القائمة التي تلت ذلك بين المرشحين، طابووا من زيمبابوي ومويشو من تانزانيا مثلاً يتهمان النيجيري بايو باستهلاك قنينات من الخمر، وعليه، بدأت تسري العديد من الملاحظات الدقيقة عن «عقلية» النيجريين في غرفة الاعترافات المباشرة أمام الكاميرا، وإذا كان التقارب بين الشعوب قد شهد تعثراً، فالتقارب بين الأشخاص قد جرى بالفعل ليسعد قسم الإنتاج، أبي من جنوب أفريقيا مثلاً لا تتردد في أن تخوض علاقة غرامية مباشرة مع غايتانو الأوغندي، والنتيجة كانت بالطبع إظهار استعدادهم لفعل أي شيء حتى لا يقصوا.

هذا براين بلاتجي والد أبي، معلقاً على سلوك ابنته: «تمنيت ألا

(1) المرجع السابق.

تذهب إلى هذا المسكن، أو على الأقل أن تتصرف بأدب، لكنها فضلت فعل ذلك، وتدرك ما المطلوب منها، فهي لا تؤمن ولو لحظة بخطاب التعدد الثقافي، كما لا تبحث عن الحب الكبير، ما تريده هو ممارسة عمل كمغنية، وربح 100000 دولار»[1]. هذه الكلمات جرى تأكيدها من طرف برونا: «لقد كان هدفنا جميعاً، هو ربح هذا المال، وهذا هو السبب الوحيد الذي دفع بنا إلى المشاركة في برنامج الأخ الأكبر، ببساطة أنا أنتمي إلى عائلة محافظة، ولا يمكنني أن أقوم ببعض الأشياء أمام الملايين من البشر»، أما بالنسبة إلى برونا، فليست نادمة على أي شيء، وبمجرد خروجها من مكان التصوير، ضاعفت من تقديم حواراتها المتلفزة، وتكلف وكيل الإنتاج بترقيتها والترويج لها.

عبَّر كارل فيشر، خلال شهر فبراير، عن غبطته لوجود 2000 ملف للترشيح على مكتبه، «ليس هناك فقط أولياء أسر، بل أشخاص من الطبقة الوسطى ومرشحون يقطنون في المدن، كما هي الحال بالنسبة إلى الأخ الأكبر في جنوب أفريقيا»[2]، وكما أشار إلى ذلك إعلاننا على قناتنا المشفرة، فالذين أبدوا رغبتهم في الترشيح، لهم مستوى دراسي عال، ووضعية عائلية جيدة، إنهم شباب مسلّون، ويتميز بعضهم عن بعض، إنهم مسلّون حقاً». لقد قيل كل شيء، فربات البيوت والمتقاعدون يقومون بدور المهرج في «السيرك»، وعلى أي حال، فأنَّ المهام الموكولة إليهم يجب أن تصدم، وتصعد من الضغط، وهذا هو الثمن الذي يجب أداؤه تجنباً للإقصاء المبكر،

---

(1) المرجع السابق.
(2) م.ن.

أما بالنسبة إلى المشاهدين، فيحاولون متابعة هذا الإيقاع، وأحياناً بنوع من الصعوبة»، في الأيام الأولى للعرض ساند العديد من المشاهدين ممثل بلدهم بكثير من الوطنية المهذبة. وعلى هامش الندوات المخصصة للبرنامج، بالإمكان قراءة بعض الرسائل التي تقول: «هيا، تقدم غايتانو، سوف تصل، نتمنى لك النجاح»، إلا أنه، منذ فترة، أبدت كاترينا الأوغاندية استغرابها تجاه الطابع الإباحي للمسكن، وقالت: «لقد أكد لي بعض الأصدقاء الأميركيين، أنه في بلادهم لا يُعرض المتبارون وهم عراة، أو في الحمام». صحيح، لأن أمكنة وضع الكاميرا في برامج الأخ الأكبر، تختلف من بلد إلى آخر، أما في برنامج الأخ الأكبر الأفريقي BBA فيعرض كل شيء. الأمر لا يصدق على البرامج الغربية مثل «أناس طيبون» وذوي الملامح الأوروبية. ربما لهذا السبب، قررت القناة الإنجليزية الرابعة، التي تقدم الأخ الأكبر الإنجليزي، نقل العرض الأفريقي، وفي الوقت الذي بدأ الإقبال على الأخ الأكبر الإنجليزي BBUK في نشرته الثالثة يشهد تدنيا، جرى غزو المشاهدين بصيغته الأفريقية لما تتضمنه من مشاهد ساخنة، لم يسبق أن شاهدوها من قبل في بلدهم.

لم يخلف سلوك المتبارين في مسكن الأخ الأكبر بأفريقيا سوى السعداء، فقد قسم هذا البرنامج زامبيا إلى شطرين. ومنذ أن أعلنت الكنائس اعتراضها وطالبت بمنع البرنامج، وهو يشكل محور نقاش أخلاقي وديني، أنَّ الإظهارية المنحرفة للمتبارين وهم في الحمام، دفعت برجال الدين للمطالبة بإحلال النظام الأخلاقي ومحاربة السيدا. في يوم 21 من شهر يوليو، قرع نفس الناقوس بنيجيريا من طرف أحد أعضاء لجنة المراقبة الوطنية للبث الإذاعي (NBC) حين عبر عن أسفه قائلاً: «إن لهذا البرنامج تأثيراً فاسداً على شبابنا،

وثقافتنا، وقيمنا الأخلاقية، وتابع مضيفاً: «في بلدنا، وفي جل البلدان الأفريقية لا نتحدث عن الجنس ولا نظهره»[1]. ويجري البحث حالياً في نيجيريا. عن إيجاد كل الوسائل لمنع عرضه على قنواتها. أما في أفريقيا الجنوبية، فالمشاهدون منقسمون على أنفسهم، والمعجبون بالساعة الأولى للعرض قالوا إنَّ المتبارين بالغوا شيئاً ما، لقد أبانت استطلاعات الرأي عن سذاجتها حين قدّم قسم الإنتاج أسئلة من قبيل: «هل تظن أن أبي وجدت حبها في غايتانو» وهي بالمناسبة، لم تعد تظلل أحداً.

حسب كارول الايس، وهو عالم اجتماع من جنوب افريقيا، فأنَّ الأخ الأكبر الأفريقي يبرز شيئاً ما عن إفريقيا، لكن، من دون شك، ليس ذلك ما كنا نتوقعه في البداية، «لقد سبق لكل المتبارين أن شاهدوا مثل هذه العروض الحقيقية قبل وصولها إلى قارتنا»[2].

برامج تبادل الأدوار

ضمن موجة تلفزيون الواقع، بل في قالب مختلف، بدأت «بي بي سي» البريطانية قبل أعوام بث برنامج عن تبديل بيوت عائلات أوروبية مختلفة، لكن الخطوة اتسعت الآن لتشمل كل شيء تقريباً. هناك برنامج عن تبادل الوظائف، المراهقين، العطلات، تبديل البنات، تبديل الزوجات... إلخ. القائمة طويلة والطلب يتزايد وقليلون هم المهتمون بجدوى أو شرعية برامج كهذه. فما الذي يمكن أن يحققه تبديل نمط حياة لمدة أسبوعين (طول التجربة في معظم الحلقات)

(1) المرجع السابق.
(2) م.ن.

وهل تكفي المدة هذه للوصول إلى نتيجة تمنح بعض الشرعية والعمق للتجربة كلها؟

وفي حين خضع برنامج تبديل المراهقين مثلاً، والذي تقدمه القناة الهولندية الرسمية الأولى، لأشراف خبراء تربويين جادين، لتخرج التجربة كلها من ضيق تلفزيون الواقع إلى معايشة مجتهدة لطرق العناية بمراهق آت من بيئة مختلفة وما تتطلبه هذه العناية من تحضيرات. قدّم برنامج «بنات غنيات مسكينات» على قناة «آي تي في» البريطانية، (وأعادت تقديمه قناة «أم بي سي» العربية)، موضوع التغيير ولكن في إطار الطبقة الاجتماعية في بريطانيا. تتبادل الفتاة الغنية الأدوار مع فتاة فقيرة لفترة أسبوعين أيضاً.

وعلى الرغم من سهولة الفكرة المثيرة للبرنامج، إلا أن النتائج التي وصلت إليها حلقاته ربما تخالف التوقعات المنتظرة. قررت معظم الفتيات الفقيرات، بعد التجربة، السعي إلى تغيير حياتهن وتطويرها، أما الصبايا المدلالات وعوائلهن فلم يكن سيئات أو مسكينات على الإطلاق، كما يتوقع البعض!

في البرنامجين السابقين كانت هناك خطة واضحة افتقدت إليها برامج أخرى اهتمت بفكرة «التبديل» بشكل سطحي ومثير من دون العمل الحقيقي على ما تتسبب به التجربة من نتائج وإشكاليات أو أسئلة.

برنامج «زوجتي هي زوجتك» مثال على برامج التبادل الضائعة تماماً، بثت البرنامج القناة الرابعة في بريطانيا أيضاً، لتنتشر نسخه المحلية في معظم الدول الأوربية. يتم تبادل الزوجات لمدة أسبوعين ويسجل تلفزيون الواقع ما يسببه هذا التبديل من نتائج ومفارقات.

في السفير[1] كتب محمد موسى في رسالة من أمستردام أن ثلاثة من الخمسة «كيبل» (أزواج) الذين اشتركوا في برنامج «مستعيرو الأطفال» أعلنوا عن انفصالهم عن بعضهم بعد انتهاء البرنامج أو التجربة التي بدأتها القناة الثالثة البريطانية (BBC3)، البرنامج التي أثار الكثير من الاهتمام وبعض النقد في بريطانيا يتلخص أن يقوم خمسة من المراهقين مع صديقاتهم بتجربة السكن المنفرد بعيداً عن الأهل مع تجربة الاعتناء بأطفال بأعمار مختلفة ومراهقين ومسنين.

في الأسبوع الأول من التجربة كان على المشتركين الاعتناء بأطفال لا تتجاوز أعمارهم السنة، في الأسبوع الثاني كان عليهم رعاية أطفال لا يتجاوزون السادسة، في الأسبوع الثالث كان عليهم العناية بمراهقين في مثل أعمارهم! أما في الأسبوع الأخير للتجربة فيطلب من المراهقين العناية بمجموعة من المسنين.

تجربة الـ «بي بي سي» التلفزيونية هذه، والتي يمكن إدراجها تحت عنوان تلفزيون الواقع، هي محاولة للتحذير من نتائج الإنجاب المبكر للمراهقين في بريطانيا التي تحتل المركز الأول في أوروبا من حيث نسبة المراهقات اللواتي ينجبن أطفالاً تحت سن الثامنة عشرة.

مشكلة الإنجاب المبكر وتوابعها الكبيرة على الاقتصاد والحياة الاجتماعية البريطانية ترهق الحكومة البريطانية غير السعيدة على الإطلاق بصورتها داخل أوروبا.

صور مشجعي كرة القدم البريطانيين العنفيين، السياح الشباب

(1) محمد موسى، السفير 7 ـ 2 ـ 2007.

المتهتكين، أمهات عازبات لا يتجاوزن السادسة عشرة من العمر، هي الصور السلبية الشائعة عن البريطانيين في القارة الأوروبية، وهي الصور التي يحاول الإعلام البريطاني تغييرها أو التخفيف من حدتها.

فريق إنتاج برنامج «مستعيرو الأطفال» حاول توفير ظروف حياة هي الأقرب للحياة الطبيعية التي يمكن أن تصادف المشتركين أو غيرهم من المراهقين، كما حصل المشتركون في البرنامج على شقق ووظائف (إجبارية) لمدة شهر. هكذا أدت ضغوطات العمل في الخارج مع متطلبات الأمور المنزلية والعناية بالأطفال بالمشتركين أحياناً إلى حدود بعيدة من التوتر والتشتت الذهني.

لقد حضرت الجدية التي تميز برامج الـ«بي بي سي» التلفزيونية في تفاصيل الإعداد للبرنامج والخطة الواضحة والمتابعة المستمرة التي أجبرت المشتركين المراهقين على التعامل الجدي مع التجربة، وخففت من رغبتهم بالتصادم مع جوهرها التربوي.

المثير في التجربة أن «أداء» المشتركين في البرنامج لم يكن سيئاً كثيراً. وباستثناء مشترك أو اثنان تصرفا بلامبالاة في رعاية أطفال تحت السنة، ما أثار بعض المنظمات الإنسانية التي اعتبرت ذلك استهتاراً بحياة الأطفال المستخدمين في البرنامج، تعامل البعض بإيجابية كبيرة مع ظروف جديدة صعبة ومعقدة، مع أن معظمهم ما زالوا يعيشون مع أسرهم. هكذا، ابتكروا حلولاً لمشاكل تربوية معقدة.

وقد ردت الـ«بي بي سي» على هجوم المنظمات الإنسانية بأن التلفزيون وفر مربيات قريبات لبيوت المشتركين وعلى طول الساعة،

كما شرح التلفزيون أن عوائل الأطفال الذين استخدموا في التجارب كانوا قريبين دائماً وأن الأمر كله تم بموافقتهم.

في نهاية حلقات البرنامج، وفي حلقة إضافية تقييمية صورت بعد شهر من نهاية البرنامج، تحدث المشتركون عن الصعاب التي صادفتهم وعن التجربة التي غيرت نظرتهم إلى علاقاتهم وتوقيت قرار إنجاب الأطفال. كما كشف معظمهم أنهم أنهوا علاقاتهم العاطفية مع شركائهم بسبب البرنامج الذي وضع علاقاتهم على المحك وأظهر جوانب من شخصيات شركائهم لم يكونوا يتوقعونها.

هكذا، هزّ البرنامج التلفزيوني حياة مشتركيه ودفع بأغلبهم إلى التفكير بطرق مختلفة. وإننا نزعم أن هذه التجربة الرائدة التي تستخدم أدوات العصر، وتستحوذ على انتباه «جمهورها» ومشاركته من باب المتعة وليس الموعظة، تستطيع أن تكون موضع فخر القناة المنتجة.

تقول جولي مراد[1]: لسنا في وارد رمي السهام نحو برامج الواقع خصوصاً أننا نعرف أن فعل «الواقع» اليوم يحاكي فعل اكتشاف أول بئر نفط أو منجم ذهب في الأيام الغابرة. هو «بطة» تبيض للقيّمين على المحطات التلفزيونية ذهباً خالصاً تتحرر فيه من قبضة المعلن الذي يضيّق عليها الخناق متى شاء أو متى عصفت به ظروف حالكة. يكفي أن نطلب من الجماهير الذين تحولوا بدورهم إلى «بطات ذهبية» التصويت لفلان أو علان كي «تشتي الدنيا مصاري» ونحقق كسباً مادياً لا بأس به إن لم نقل خيالياً. ولكن «البطة» سرعان ما باتت تبيض قشرة ذهبية يابسة خاوية مطعمة

(1) جولي مراد، البلد 21 ـ 1 ـ 2006.

بتكتيك تسويقي في قالب براق، قل إنه أشبه بمن يمارس عليك تنويماً مغنطيسياً لتستيقظ بعد لحظات وقد خلا وفاضك من أي مصدر قوت. ورحت تسأل بعد انعتاقك من أثر التنويم هل يصح أن نستفتي الجماهير ونعطيهم سلطة تنصيب من يشاؤون على القمة لمجرد أنهم الأكثر عدداً؟ وتتساءل، وأنت في غمرة اليقظة، هل تضرب البشرية - وهي في عصر التمدن - بالنوعية عرض الحائط وتسير كالقطعان وراء الكم؟

قد نكون مع تلفزيون الواقع أو ضده. ولكن الحق يقال إنَّ «الواقع» استنزف إلى درجة أصبحت فيه تشعر أن ما حضر لك في مطبخه إنما أعد ليشفط من جيوبك ما أنفقت ساعات لكسبه.

«المستثمر»

ولكن ماذا لو تحول «الواقع» أداةً تثقيفية محورها بعيد كل البعد عن الربح المادي؟ ماذا لو لم يطلب منك أحد استخدام هاتفك الجوال لتملأ جيوبه. بل دعاك إلى رحلة تشاهد فيها برنامجاً أشبه في مضمونه بما توفره لك «أكاديمية» (بعيدة عما هو متعارف عليه اليوم بالدكاكين) هدفها الأساسي تحفيز قدراتك الفكرية وتسليحك بأدوات تسمح لك بمواجهة المستقبل بعزم. وقد خزّنت ذخيرة كافية لتحويل مشاريعك حقيقة ملموسة تودع معها أرق الغد الغامض؟

«المستثمر» برنامج أبطاله: «وليد الجفالي» رجل الأعمال السعودي الذائع الصيت. و13 فريقاً. كل منها مكون من شخصين تربطهما صلة قرابة. الهدف: كسب نصف مليون دولار تسمح للمشترك الانطلاق بمشروع أحلامه. الوسيلة: تأدية مهمات مختلفة

على امتداد 13 أسبوعاً يستفيد خلالها المشترك من توجيهات مجموعة من المستشارين ذوي باع طويل في مجال إدارة الأعمال على غرار حسين شبكشي وغيره، ويبرهن فيها المشترك للقيمين أنه قادر على الإتيان بأفكار مبتكرة وتنفيذها متى توافرت له الظروف الملائمة. وقد شددت المسؤولة عن البرنامج سلوى سويد على أن «الهدف من البرنامج ليس تحقيق كسب مادي بل تقديم مادة تثقيفية مفيدة تسمح للشباب العربي بولوج عالم الأعمال في قالب لا يخلو من المواقف الإنسانية الدرامية التي تعكس واقع الحياة القائمة على ركيزتي الربح والخسارة»[1]. وأضافت أنَّ «فكرة البرنامج مستوحاة من برنامج أميركي يعرض في الولايات المتحدة وقد اشترت الـ«أم. بي. سي» حقوقه، وهي بذلك تغامر مرة أخرى بإنتاج ضخم مثلما فعلت مع برنامج «من سيربح المليون» مع تكييف البرنامج مع الواقع العربي. وأشارت السويد إلى أنَّ تحضيره استغرق عاماً كاملاً مع فريق عمل ضم 58 محترفاً استقدموا من البلدان العربية وأوروبا. مهمة تقييم مشاريع المشتركين فتولتها لجنة برنامج «بيزنس ادج» للتدريب الإداري التابع لمؤسسة التمويل الدولية، العضو المشارك في البنك الدولي».

«الرابح الأكبر»

في 2006/4/25 عقد تلفزيون «أم بي سي» مؤتمراً صحافياً في بيروت لإطلاق برنامج «الرابح الأكبر» الذي يصوّر على طريقة تلفزيون الواقع وتقدمه كارولينا دي أوليفيرا، وهو عبارة عن دراما يتولى فيها مدربون رياضيون، بإشراف اختصاصيين في الصحة

(1) المرجع السابق.

والغذاء وعلم النفس، مساعدة 14 مشتركاً على إنقاص وزنهم والتمتع بصحة جيدة للتوصل إلى تحسين نوعية حياتهم.

في «الرابح الأكبر» سيواجه المشاركون الذين سينقسمون إلى مجموعتين متنافستين تحديات واقعية عدة ستصعب عليهم الفوز بجائزة «الرابح الأكبر». وسنتابع يومياً كيف سيعيش هؤلاء المتبارون «تضامنهم وتناحرهم، إرادتهم ووهنهم، وسنكتشف كيف يواجهون تحديات الالتزام ببرامج الحمية الغذائية وتحديات الرياضة البدنية وكيف يقاومون إغراءات العودة إلى نمط الغذاء السابق».

في الأسبوع الأول يخرج المتبارون لاختيار الأطعمة التي سيحتاجون إليها للأيام العشرة المقبلة، وبعد هذه المدة نقارن وزن كل فريق. الفريق الذي خسر وزناً أقل يضطر إلى التصويت لإبعاد متبارٍ عن المسابقة.

في الأسبوع الثاني، يخرج المتبارون مرة أخرى لاختيار الطعام، هل سيقعون في نفس الخطأ؟ ومرة أخرى، سنقارن وزن كل فريق، لكن الفريق الذي يكون عدد أعضائه أكبر عليه أن ينحي جانباً واحداً منهم.

في الأسبوع الثالث، تشتد المنافسة والضغط النفسي يزداد ويتابع المتبارون جاهدين لإنقاص وزنهم ليصبح واحد منهم الرابح الأكبر.

وتستمر الحال على هذا النحو إلى أن يصبح عدد المشتركين اثنين. فيكثف كل واحد منهما جهوده لإثبات ذاته على الصعيدين، الجسدي والفكري[1].

---

(1) الحياة 26 ـ 4 ـ 2006.

«ميشين فاشن»

على رغم مرور برنامج «بروجكت فاشين» على شاشة «المستقبل» مرور الكرام من دون أن يلفت الأنظار، باشرت «أل بي سي» عرض برنامج مماثل يعنى بعالم الموضة والأناقة بعنوان «ميشين فاشين».

البرنامج من نوع «تلفزيون الواقع»، ويحتوي على مباراتين منفصلتين لفئتين معنيتين مباشرة بعالم الأزياء والموضة: الفئة الأولى هي فئة تصميم الأزياء، والثانية عرض الأزياء.

تصور مجريات البرنامج 24 ساعة في اليوم وتنقل إلى الجمهور بصورة متواصلة على قناة «نغم»، وتبث الفضائية اللبنانية حلقات يومية عن البرنامج مدة كل واحدة منها نحو نصف ساعة، تتضمّن مقتطفات من الأحداث اليومية المسجلة، إضافة إلى سهرة فنية أسبوعية، يحييها فنان أو أكثر من لبنان والعالم العربي والغرب.

أما ضيفة «البرايم» الأول فالفنانة إليسا..

ولعل ما يميز برنامج «أل بي سي» عن برنامج «المستقبل» هو وجود مصمم الأزياء اللبناني إيلي صعب (يعتبر عراب البرنامج) الذي وصلت تصاميمه إلى العالمية، وألبس كبار نجمات هوليوود. فهل يكون عراب البرنامج وسيلة لجذب المشاهد وجرّه إلى عالم الموضة؟

«الوادي»

قبيل انطلاق برنامج «الوادي» على شاشة L.B.C كتبت كوليت مرشليان[1] إنَّ L.B.C تعرض «الوادي» تزامناً مع عرضه في السويد

(1) كوليت مرشليان، المستقبل 15 ـ 7 ـ 2005.

والنروج حيث أعدت الفكرة تنسيقاً بين البلدين. وتدخل محطة «المؤسسة اللبنانية للإرسال» من لبنان في تحدي المشاركة في برنامج يقع في خانة «تلفزيون الواقع» ويتوقع له أن يشهد نسبة كبيرة جداً من المشاهدين، خاصة أنَّ المشاركين فيه هم جميعهم من مشاهير الفن في العالم العربي.

في هذه المزرعة ستسكن مجموعة من النجوم تخضع لشروط إقامة قاسية حيث لا ماء ولا كهرباء ولا هاتف ولا أي وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، وعلى المشتركين المنقطعين عن الحياة الاجتماعية أن يعيشوا حياة مزارعين حقيقيين 12 أسبوعاً، ويمارسوا خلال هذه الفترة الطويلة كل أعمال الريف والمزارع من زرع وتربية ماشية واعتناء بالمحاصيل لأن المحاصيل الزراعية بين أيديهم ستكون هي المصدر الوحيد لغذائهم، وبالتالي كيف سيتمكن هؤلاء من الاستغناء عن الحياة اليومية المترفة التي اعتادوها سابقاً ليتأقلموا مع حياة بدائية خشنة.

الصحافية رشا الأطرش واكبت اللحظات الأولى لكواليس الوادي بكثير من الواقعية فكتبت[1]:

أول الدخول شمعة على الطول. مشكلة مع المصورين الصحافيين. يريدهم فريق العمل أن يبقوا خارج المساحة المخصصة للجمهور، ويريدهم أيضاً أن يرتدوا قمصاناً سوداء، طبع عليها شعار البرنامج بالأحمر، أسوة بالعاملين في البرنامج. ممنوع عليهم الاقتراب من «المسرح»، لأنهم، بحسب المنظمين، «سيعيقون حركة كل من المشاركين الأربعة عشر» الذين سيصلون على الحمير، ثم

(1) رشا الأطرش، السفير 18 ـ 7 ـ 2005.

سيترجلون، ثم سيمشون إلى المسرح تحت عين الكاميرا. وذلك بعد عرض تقرير تعريفي قصير عن كل واحد وواحدة منهم. يشعر المصورون أنهم وقعوا في شرك. يريدونهم أن يبدوا، في خلفية الصورة التلفزيونية، بقمصان البرنامج، لتشع «فلاشات» كاميراتهم على المشاركين ـ النجوم لحظة الوصول، على طريقة مهرجان «كان» السينمائي. تثور ثائرتهم. بعضهم يعمل لحساب وكالات أنباء عالمية من عيار «وكالة الصحافة الفرنسية»، والبعض الآخر في صحف محلية زميلة، والآخرون من مجلات فنية. «أنا صار لي 15 سنة بالمهنة»، يقول أحد الزملاء المصورين من صحيفة محلية رئيسية، «آخرتي، قوم وأقعد وأعمل كومبارس، وبعدين صور المسرح نحنا منعطيك إياها؟ لشو تعذبنا وعطلنا أشغالنا وجينا؟ حتى نصور الحمار، إذاً عليه شيء مشترك؟!». ينشر الخبر، ويصل إلى الزملاء المحررين الجالسين بين الجمهور. يقرر المصورون الرحيل وعدم التصوير، بعدما كان بعضهم قد التقط صوراً قليلة للحمير المتوقفة في الخارج والمتوقع أن تأتي بالمشاركين تباعاً. يتضامن معهم بعض المحررين. لكن، هيهات. الباصات رحلت، وكان على الفوج المعترض الأول الانتظار لمدة ساعة ليأتي باص ويعيدهم إلى أدما، حيث ركنوا سياراتهم. علقوا!

يبدو أنَّ «تلفزيون الواقع» غير وجهته هذه المرة. لم يعد يحتفي بالأشخاص العاديين، ويومياتهم المصورة (بانتقائية ما)، ليطوبهم، بمشيئة الجمهور، نجوماً. لم يعد يقلد الحياة المعاشة. استحضر من صنّفهم، بالنيابة عنا، نجوماً جاهزين. أغراهم على الأرجح بانتشار عربي لصورهم وأسمائهم. واعتبر أن المشاهد سيمتلك فضول التلصص عليهم.

في البلد[1] كتب علي العزير أن برنامج «الوادي»، كما سائر البرامج الواقعية الأخرى التي تقوم على إرضاء غريزة التلصص يطرح سؤالاً محورياً حول الطبيعة الإنسانية المعقدة، ذلك أنه ينشد الحرية منذ اللحظة الأولى، لوجوده على هذه الأرض، ويبذل في سبيل ذلك جهوداً استثنائية، لكنه في لحظة ما يقرر التخلي طوعاً عن تلك القيمة الإنسانية الثمينة، ويختار الخضوع لهيمنة الكاميرا التي تحصي عليه أنفاسه وتنقل أسراره وخفاياه الدفينة إلى الملأ، وذلك مقابل ما يحسبه شهرة، متغاضياً عما يتيحه الغموض من جاذبية ومتعة مشاهير الوادي، ومعظمهم لم يكن كذلك قبل دخوله إلى البرنامج، صاروا مشاهير حقيقيين بعد فترة لا بأس بها من الحضور الضوئي المتواصل، لكنهم دفعوا أثماناً لا يستهان بها مقابل ذلك، فقد تداعت الحدود الفاصلة بينهم وبين جمهور المشاهدين الذي اعتاد النظر إلى أهل الشهرة وفق رؤى محددة، تعتمد على مسافة فاصلة، لا بد من وجودها وإن كانت قابلة لأن تتسع أو تضيق. الحاصل في حالتنا هذه أن الجماعة تحولوا إلى كائنات أسيرة للمزاج المشاهدي كونهم لا يملكون ما يمارسون من خلاله فعالية التأثير المتبادل مع الجمهور، هم موجودون للفرجة فقط. لمراقبة سلوكهم وتصرفاتهم، وبالتالي فهم في حالة امتحان دائم مما يعني أنَّ فرصتهم في النجاح المستمر أمر صعب بل يكاد يكون مستحيلاً، وبعيداً عن ذكر الأسماء فأنَّ كثيرين من المشاركين في البرنامج قد تراجع حضورهم في أذهان الناس بعد المشاركة، لأنهم تخلوا عن حاجز المسافة، كما تنازلوا عن التحوير الذي لا بد

(1) علي العزير، البلد 25 ـ 8 ـ 2005.

منه في الملامح والسلوك حتى تستقيم العلاقة بين المشهد والمشاهد. تجربة «الوادي» باختصار تشير إلى أن كل إفراط مسيء حتى لو كان مستنداً إلى غريزة البقاء والوجود.

ديموقراطية «الوادي»

في السفير كشف رياض قبيسي زيف ديموقراطية التصويت في هكذا برنامج فكتب[1]:

«قطّب «البروفيسور» حاجبيه، ثم راح يتحدث بجدية مبالغ فيها وهو يشرح وجهة نظره في نتيجة تصويت المشتركين على بعضهم لاختيار «نومينين» الأسبوع. ثم قرر، وبالجدية إياها، الإطاحة بجزء من نتيجة التصويت لأنه استشف فيه ظلماً وسوء تقدير، ليعود ويقرر اسم المشتركة فرح بن رجب لتكون هي «النوميني»، عوضاً عن المشتركة فاطمة التي نالت أصواتاً أكثر منها.

بعدما أمعن برنامج «الوادي» في تمييع حياة المزارع الحقيقية، ومن ثم إفراغها من مضمونها الحقيقي الذي يتمحور في فلك الإنتاجية وآليات تصريف البضائع، جاء مؤخراً ليتطاول على أبسط وأوضح أشكال الاختيار الجماعي أو الانتخاب. وهنا الكلام ليس للقيّمين على البرنامج وإنما للذين يرجون لهكذا برامج على أنها شمعة ديموقراطية في دامس ظلام الأنظمة العربية، وخلافها من الاستعارات والتسويغات التي روجت لمساهمة البرامج القائمة على التصويت (بين المشتركين أو الجمهور) في عملية تعزيز الثقافة الديموقراطية في المجتمعات العربية».

---

(1) رياض قبيسي، السفير 20 ـ 8 ـ 2005.

ويتابع قبيسي أنه مع انطلاقة «تلفزيون الواقع»، ما كان أحد يتوقع أن تصل قدرة هذا التلفزيون إلى حد العبث بواقع القطاعات الإنتاجية في حياتنا. كان الاعتقاد السائد يقول إنَّ «تلفزيون الواقع» يبحث عن واقع يمكن استهلاكه، يمكن استسهاله، يمكن استغلاله، ومع هذا الاعتقاد كانت القطاعات الإنتاجية المرتبطة بالصناعة والزراعة تبدو بعيدة عن ماكينة «المونتاج». بدأ واقع هذه القطاعات، وقصص وتفاصيل حياة شخصياتها، عصية على الاستهلاك. غير أن هذا الاعتقاد سرعان ما سقط مع برامج زاوجت ما بين الترف والمشقة، منها برنامج «الوادي».

تهاوت آخر حصون الواقع الحقيقي المليء بالخيبات والمشقات والصعوبات. الواقع الذي لا يحتمل المونتاج. ولما سقط الواقع في قبضة الإخراج التلفزيوني، جاء دور المفاهيم لتسقط هي بدورها في دوامة الاستهلاك. ويسجل لـ«أل. بي. سي» أنها أول من تجرأ على التطاول على المفاهيم. فإذا كنا لا نستطيع الجزم أن أياً من النسخات الأجنبية تجرأت على التطاول أو التعدي على إرادة التصويت. قدم لنا «الوادي» الدليل الحي على إدارته لعملية التصويت. فبعدما اختار المشاركون، جاءت إدارة «الوادي» لتطعن بالنتيجة، ومن ثم لتغيرها بحجة افتقار نتائج التصويت إلى معيار الجدارة.

«من جديد»

في بيت كأنه العالم، كأنه المجتمع، كأنه الإنسان اجتمعت سبع نساء لمدة 90 يوماً في برنامج حمل عنوان «من جديد» على فضائية MBC.

أشياء كثيرة يمكن أن تقال عن هذا البرنامج الذي حمل سمات اجتماعية ونفسية إنسانية في إطار طبي وإعلامي مدروس.

كيف لنا أن نخضع لرقابة الكاميرا وسطوتها، بخوف وحرج في البداية ثم تأخذنا اللعبة؟ وكيف يتسنى القبول بالكشف عن ذواتنا أمام الملايين من المشاهدين؟!

ولكن: إلى أي مدى نحن قادرون على التخلص من أشياء تطبعنا بها وانزرعت فينا، نشأنا عليها وحملناها من طفولتنا وخبراتنا، بإرادتنا وضد إرادتنا، من ميولنا الذاتية ومن أشكال القمع والأرغام الكثيرة التي مورست علينا لحشر ذواتنا وتنميطها وجعلها نسخاً أو عبيداً لذوات الآخرين، حتى من خلال الحب، الذي يقتل!

تجربة فيها شيء من السجن: أن تخضع لبرنامج يراد لك ألا تحيد عنه وتعيش مع وجوه مفروضة عليك. وهي دخول في مختبر: كي نختبر ذواتنا وقدراتنا. وهي امتحان في العراء: كيف تكون أرواحنا وهي مشرعة على الملأ؟

ثمة أمور غير البيت الجميل، ورغد العيش، وجولات الترفيه، وأخذ الدروس لاكتساب المهارات، ونيل الهدايا، أمور جالت في نفوس المشرفين ونفوس المشتركات ونفوسنا: في المحصلة، هل نجح «العلاج» مع كل واحدة من النسوة؟ هل تخلصن من المشكلات التي أتين بها إلى البرنامج؟ هل كان ثمة توازن وعدالة نسبية في التعامل مع كل واحدة منهن على صعيد منح الاهتمام، والرعاية، والفرص، والتقدمات، وحتى الهدايا التذكارية؟ هل ثمة أحلام جديدة أم أوهام أخرى؟!

الأشياء الصلبة في النفس سيتم حملها وستستمر حتى حلم

كبير أو قبر صغير، ما عبّر عنه راسكيلنكوف بطل ديستويفسكي في «الجريمة والعقاب»: أينما ذهبت، لن تهرب!

لنتذكر، إن هذه المجموعة من «الجنس اللطيف» عيّنة من مجتمع كبير، قاس، الفشل فيه أكبر من النجاح، مجتمع مملوء بالقمع والظلم والمكابرة والهشاشة، وأبعد ما يكون عن «السوية النفسية»، مجتمع لو «وافق!» على الدخول في برنامج «من جديد» لاحتاج معظمه إلى إقامة مديدة في عيادة نفسية هائلة، وسنحتاج عندئذ إلى شاشة بعرض السماء![1].

عن برنامج «من جديد» كتب علي العزير[2] أنه برنامج من طراز استثنائي استفاد من التجارب السابقة وهو ما يحاول البرنامج أن يؤكده من خلال خمس نساء، لم يحظين بشيء من النجومية في حياتهن، بقدر ما شكلن حصيلة بشرية لتجارب عيش مفرطة في قسوتها، وبصورة أوضح فإن نجمات «من جديد» هنَّ تجليات للمعاناة الصعبة التي تحيل المرء إلى ركام من الانفعالات والإحباط.

البرنامج يعاكس السير الطبيعي لبرامج التلفزيون، حتى الواقعية منها، ذلك أنه يتولى معالجة المشاركات اللواتي يشكين من أزمات نفسية صادرة، جراء الظلم الذي تعرضن له، هكذا فإن استمرار إحداهن في البرنامج يعني أنها لا تزال بحاجة إلى مداواة الجرح التي ألحقتها بها مآسي الحياة. أما خروج أخرى فيمكن احتسابه فوزاً، لأنه يعني ببساطة أنها أصبحت على طريق الشفاء من آلامها المقيمة. وصار بإمكانها معاودة رحلة العيش من جديد، بحثاً عن

(1) عدنان جابر، الحياة 1 ـ 10 ـ 2005.

(2) علي العزير، البلد 28 ـ 8 ـ 2005.

إنجازات وعثرات تشكل بتلازمها إيقاع العمر، الذي قال عنه الشاعر يوماً أنه موعد متجدد مع التعب النقي، وكل العجب من الرغبة الجامحة في الازدياد.

الدين في تلفزيون الواقع

المد الديني وصل إلى شاطىء تلفزيون الواقع. على يد الداعية المصري عمرو خالد الذي نقل برنامجه وموقعه الإلكتروني ومشروعه «صُناع الحياة» إلى عالم تلفزيون الواقع متحدياً الفكرة السائدة عن هذا النوع من البرامج، التي انتشرت في عالمنا العربي من العامين الأخيرين بفضل برامج مثل «ستار أكاديمي» و«سوبر ستار» و«سرفايفور» وغيرها.

لكن «الواقع» الذي قدمه عمرو خالد لمريديه ومشاهديه فضائياً كان مختلفاً شكلاً وموضوعاً. لم يكن هناك الطبل والزمر المعتادان، ولم تكن هناك الفتيات الجميلات الممشوقات، القافزات يميناً ويساراً، ولم تكن هناك حفلات الـ«Prim» الأسبوعية التي ينتظرها المشاهدون ليختلسوا النظرات المتعمقة إلى كل جديد وجميل. لقد كان واقعاً شديد الواقعية، وإن لم تنقصه مسألة «التصويت» على هاتف كذا من مصر وكذا من السعودية[1].

خرج عمرو خالد على جموع المشاهدين الفضائيين ينقل إليهم وقائع برنامجه «صُناع الحياة» لحظة بلحظة حيث معسكر «التنمية بالإيمان» على الهواء مباشرة. المشهد يختلف تماماً عن «الواقع» الذي اعتاده، وربما أحبه أو كرهه المشاهد العربي. فالشابات يجلسن

---

(1) امينة خيري 14 ـ 1 ـ 2006.

في جانب، والشباب في جانب آخر، وعمرو خالد على المنصة، فيما أحد شباب «صناع الحياة» يستعرض المشاريع التي تقدم بها الشبان والشابات من أجل التنمية من منطلق الإيمان. وبعد تفاصيل كثيرة، يتم اختيار خمسة مشاريع ليجري عليها تصويت المشاهدين. المشاريع الخمسة هي: «الإنتاج التعليمي لعلم ثلاثي الأبعاد» و«المنتديات الصحية» و«زدني» و«نعناع المدينة» و«محو أمية الكومبيوتر». ويناشد خالد المشاهدين على الهواء التصويت عبر المحمول. وعلى الهواء مباشرة أيضاً، يتلقى البرنامج تبرعات من أهل الخير للتكفل بأجهزة الكومبيوتر في هذا المشروع، أو الأجهزة الطبية في ذلك المشروع، وهكذا.

ثم يأتي وقت الراحة، وتخرج رسالة من القناة الفضائية على شريط أشبه بشريط الأخبار يعد المشاهدين بأن البثّ سيستمر على الهواء. وعلى عكس البرامج الأخرى، لا مشاهد مختلسة في غرف النوم، ولا في غرفة الطعام، ولا مشاكسات ولا شقاوات، بين الشباب والبنات، لكنها أحاديث جانبية غير مسموعة بين الحاضرين من جهة، والحاضرات من جهة أخرى، والفنيون يجهزون الميكروفونات، وينسقون المقاعد، وغير ذلك. ويعود عمرو خالد بعد الاستراحة ويقول للمشاهدين: «إذا قلبت على قناة فضائية أخرى، ووجدت شيئاً مش ولا بد، فتذكر معسكر التنمية بالإيمان».

وينتقل «الأستاذ» إلى الجزء «التفاعلي» في البرنامج، فقد طلب من الحاضرين والمشاهدين تجهيز ورقة وقلم، وكتابة نعم الله على كل منهم، ثم أخذ يشرح كل نعمة من النعم التي اختارها الحاضرون، واستمرت وقائع تلفزيون الواقع من منطلق ديني لتؤكد أن في جعبة تلفزيون الواقع المزيد من الخبايا والتجديدات

- باختلاف تعريفاتها - والاختيار في نهاية الأمر للـ«ريموت كونترول»[1].

«أفغان ستار»

ضمن التوسّع المطّرد لتلفزيون الواقع، وصل ستار أكاديمي إلى أفغانستان. الزمان: سنة 2005 أي بعد أربع سنوات على انتهاء حكم طالبان. الوسيلة: تلفزيون (تولو تي في) أوّل محطة تلفزيونية أفغانية، أنشئت بتمويل أميركي (من قبل يو. أس. ايد USAID) والتي بدأت البث منذ سنة 2004 على كامل الأراضي الأفغانية. المشتركون: اثنا عشر شاباً وشابة تتراوح أعمارهم بين الثماني عشرة والأربع وعشرين سنة ممن نجحوا في التصفيات الأولى من بين آلاف المتقدمين. الجائزة: ثلاثة آلاف دولار (وهو مبلغ كبير جداً بالنسبة لمستوى دخل الفرد في أفغانستان) إضافة إلى إنتاج أول ألبوم غنائي للرابح.

«ستار أكاديمي» بفكرته وحلته و«برايماته»، وإنما.. بشروط أفغانية. إذ أوجبت التقاليد الأفغانية إجراء بعض التعديلات على «نمط» و«مستلزمات» البرنامج، كالملابس المحتشمة التي فرضت على الفتيات اللواتي يظهرن بالحجاب دائماً، ولجنة التحكيم التي طلب منها عدم توجيه التعليقات القاسية للمشتركين والحفاظ قدر المستطاع على مشاعرهم، كما لم يسمح «للطلاب» بالعيش في مكان واحد مع كاميرات تنقل صورهم على مدار الساعة، ما ألغى فكرة «تلفزيون الواقع» من أصلها كونها مبكرة جداً على مجتمع ما زالت

(1) المرجع السابق.

تركيبته الاجتماعية «هشّة». أما «المواد» التي يقدمها المشتركون، فهي أغان لفنانين أفغان كبار، لم يعرفوا غيرها منذ زمن بعيد وتعود للستينيات والسبعينيات والثمانينيات، لكنهم سيحاولون تأديتها بطريقة تتماشى مع «عصر» البرنامج دون المساس بالكلمات أو الألحان. وبالنسبة لعملية التصويت، فستتم عبر الاتصالات والرسائل القصيرة، وفقاً لاتفاقية بين تلفزيون «طلوع» وشركة «روشان»، وهي أول شركة للخطوط الخلوية في أفغانستان.

يرى القيّمون على «أفغان ستار» أنه «سيلبّي حاجة الشباب الأفغاني، وسيسد الفراغ الذي خلفه النظام الطالباني السابق في سنوات حكمه الطويلة». وتوضح وجمة محسني إحدى منتجي البرنامج أن «نسبة الإقبال والمتابعة فاقت التوقعات!»[1].

وتعاقدت «تولو تي في» مع أول شركة خليوي أفغانية هي «روشان» التي تشهد إقبالاً جماهيرياً كثيفاً. وفي آخر حفلة «برايم»، وفي قاعة اكتظت بالجماهير، خرج أحد المشاركين مودعاً الجائزة الكبرى (3000 دولار)، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى المواطن الأفغاني، إضافة إلى عقد إنتاج أسطوانة مع «تولو تي في».

يقول هوسيار ولي زاده الذي يحلم بالجائزة وكان عاد إلى بلاده مع عائلته العام 2001 بعد تسع سنوات أمضاها في المنفى في باكستان: «كل شيء تغير في حياتي. بت مشهوراً والكل يعرفني».

«عراق ستار»

تجاوز برنامج «عراق ستار» على قناة «السومرية» العراقية عقدة

(1) صباح أيوب، السفير 6 ـ 1 ـ 2006.

الخوف. فلا شك أن الذين وصلوا إلى الأستوديو عانوا الأمرّين: الخوف من طرق مفخخة

القلة الذين يتابعون البرنامج يجمعون على القول بأن نجوم العراق المحتملين يقفون أمام اللجنة الفاحصة كما لو أنهم أمام «كيماوي» ما. ثمة تأدب فائض. تلعثم، عيون خفيضة، والجسد الواقف ليس حراً في وقفته، مع أن اللجنة في غاية التهذيب والفهم.

عنصرية على الهواء

أوقف رعاة برنامج تلفزيوني واقعي بريطاني يواجه حالياً اتهامات بالعنصرية دعمهم للبرنامج، بعد تعرض نجمة السينما الهندية شيلبا شيتي لمضايقات من زملائها المتسابقين.

وقالت شركة «كارفون ويرهاوس» أكبر شركة لبيع أجهزة الهواتف المحمولة بالتجزئة في أوروبا، إنها ستتوقف عن رعاية برنامج «الأخ الأكبر» لأنها لا تريد أن يرتبط اسمها بمزاعم عن مضايقات عنصرية. وقال المدير المالي للشركة روجر تيلور إنَّ الشركة ستسحب دعمها للحلقات لكنها لا ترى ما يمنعها من رعاية البرنامج في المستقبل.

إلا أنَّ القناة البريطانية الرابعة التي ارتفعت معدلات مشاهدتها بشدة منذ نشب الخلاف، دافعت عن البرنامج المثير للجدل الذي تبثه. وقال رئيس الشركة التنفيذي أندي دنكان: «لا لن نلغي البرنامج. لا يمكننا القول بثقة إنَّ العبارات التي وجهت لشيلبا كانت وراءها دوافع عنصرية».

وأثارت نسخة المشاهير من برنامج «الأخ الأكبر» احتجاجات في بريطانيا، حيث قدم أكثر من 30 ألف مشاهد شكاوى للمنظمة المعنية

بمراقبة الإعلام في البلاد فيما أحرق معجبون بشيتي في الهند دمى لزملائها المتهمين بالإساءة إليها.

واضطر رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير للمشاركة في الجدل بشأن هذه المسألة في مجلس العموم، كما اضطر خليفته المنتظر وزير المالية غوردون براون للدفاع عن صورة بريطانيا أثناء زيارة للهند لتعزيز العلاقات التجارية.

واحتلت أنباء البرنامج الصفحات الأولى من صحف بريطانيا والهند وتناولت صحافة البلدين أوجه القصور في ثقافتيهما.

من التداعيات وفي اعتراف دامع، أقرت جيد جودي، نجمة تلفزيون الواقع في بريطانيا، بأن تعليقاتها في نسخة المشاهير من برنامج «الأخ الأكبر» كانت عنصرية. وقالت الممرضة السابقة في مجال طب الأسنان (25 عاماً)، وهي أساس عاصفة أثيرت بسبب انتهاكات لفظية وجهتها إلى منافستها الهندية في البرنامج، أي ممثلة «هوليوود» شيلبا شيتي، إنها تصرفت ببلطجة. وذكرت جودي في مقابلة مع صحيفة «نيوز أوف ذا ورلد» اللندنية: «لست عنصرية، لكني أعترف بأني أطلقت تعليقات عنصرية».

وكانت شيتي قد تعرضت للسخرية بسبب لكنتها وأطعمتها الوطنية، بل أطلقت عليها تسمية «شيلبا بوبودوم» (نسبة إلى نوع من الخبز الهندي)، كما قالت جودي عنها «إنها تجعل جلدي يخدر»، فيما قالت متسابقة أخرى «يجب أن تعود إلى بلدها. إنها حتى لا تستطيع أن تتكلم الإنكليزية».

وفي حين انسحب أحد الرعاة الأساسيين للبرنامج، بعد موجة الاحتجاجات على ما حدث، فقد قالت جودي التي أخرجها تصويت

المشاهدين من البرنامج، وقد انفجرت بالبكاء خلال المقابلة الصحافية: «أعلم الآن أن الأشياء التي ربما لا أعتبرها عنصرية يمكن أن تكون عنصرية بالفعل»، مضيفة: «هذا خطئي لأني لا أعلم الكثير عن ثقافات الآخرين».

لكن «رب ضارة نافعة» فقد فازت الممثلة الهندية بجائزة البرنامج بعد أن نالت 63 في المئة من أصوات المشاهدين ويعزو كثرة حصولها على هذه النسبة الكبيرة إلى تعاطف الجمهور البريطاني معها بعد موجة الاحتجاجات والتظاهرات التي عمت بعض مدن الهند نتيجة سوء معاملتها ووصفها بأبشع النعوت.

ولم تقتصر الآثار الإيجابية لهذه الإمة على فوز شيتي بالمسابقة فحسب، إنما ذكرت بعض الصحف البريطانية أن العروض التمثيلية انهالت عليها فور انتهاء المسابقة. وهي تدرس حالياً قبول دور البطولة في مسلسل كوميدي من إنتاج تلفزيون «بي بي سي».

تلفزيون الواقع يخرّج الكتّاب هذه المرة

وصل تلفزيون الواقع إلى الأدب في برنامج تنظمه جامعة مكسيكو المستقلة UNAM، يُجمَع اثنا عشر كاتباً شاباً لمدة شهرين في منزل سيكون افتراضياً هذه المرة. ذلك أن منزل «السكان» الذين تراوح أعمارهم بين 20 و35 سنة، سيكون موقع الكتروني حيث يخضعون لما تطلبه منهم لجنة حكم مؤلفة من ثلاثة كتّاب تؤدي دوراً شبيهاً بدور «الأخ الأكبر»، على غرار ما يحصل في البرنامج المشهور الذي يحمل نفس الإسم. أما كتاباتهم فستخضع لحكم زوّار الموقع الذين سيتولون عملية إبعادهم الواحد تلو الآخر بحيث لا يبقى في النهاية إلا الفائز الذي يحصل على خمسين ألف بيزوس أي

ما يعادل 3380 أورو. وقال مدير قسم الأدب في الجامعة، وهي إحدى أهم جامعات مكسيكو: «نريد أن ننجز أمراً مفرحاً ومسلياً ينزل الأدب عن عرش فخامته التي تقيده وتسجنه».

الواقع يثير غضب الصين

أما الصين فقد اتخذت خطوات صارمة لتشديد الرقابة تصل إلى حد منع برامج تلفزيون الواقع، معتبرة أنها تخدش الذوق العام.

ونقلت وكاة أنباء «شينخوا» الصينية عن رئيس الإدارة العامة للتلفزيون والسينما والإذاعة وانغ تياهوا قوله في مؤتمر صحافي سنوي، إنَّ هناك برامج كثيرة لا تراعي الذوق العام.

وأشارت إلى أنَّ برامج تلفزيون الواقع أصبحت أكثر شعبية وانتشاراً في الصين، مع أن أكثرها أثار شكاوى من المشاهدين الذين يقولون أنَّ المتنافسين مشغولون بمن يظهر أكبر قدر من جسده فقط.

وقال المدير العام إن وكالته ستصدر كتيباً يضم توجيهات وتعليمات في شأن هذه البرامج وتستمر في مراقبة الهواء لتجعل البرامج أشد احتشاماً واحتراماً.

تلفزيون الواقع كأداة ترويج سياسية

عاد النائب البريطاني جورج غالاوي، المعروف بصداقته لصدام حسين وبعداوته للرئيس جورج بوش ورئيس الحكومة البريطانية توني بلير، إلى واجهة الأحداث وإلى احتلال مساحة من اهتمامات البريطانيين... عبر شاشة القناة الرابعة في التلفزيون البريطاني وبرنامج «الأخ الأكبر».

وقال ناطق باسم القناة: «لدينا أنظمة وضعتها لجنة البرامج لمنع استغلال البث في تحقيق مكاسب شخصية»، وعلى هذا الأساس «سنمنع كل ما يتعارض مع هذه الأنظمة وسنراقب ما يقوله غالاوي تحديداً».

وغالاوي، الذي يطلق عليه اسم «جورج الرائع»، بسبب بشرته البرونزية وأزيائه الأنيقة وسيجاره الهافاني الذي يلتهمه بشراهة، انضم إلى تسعة مشاهير آخرين من بينهم نجم كرة السلة الأميركي دينيس رودمان إضافة إلى مايكل باريمور بطل فضيحة «الجنس الواحد والمخدرات». ويصور البرنامج المتسابقين الذين يعيشون في منزل يغص بكاميرات التصوير. ويصوت المشاهدون على من يغادر المنزل من المتسابقين تباعاً خلال 23 يوماً.

وكان غالاوي (51 عاماً)، الذي يفتخر بأصله الاسكتلندي طُرد من حزب العمال الذي يتزعمه بلير العام 2003 بسبب معارضته الصريحة للحرب على العراق.

وقال غالاوي، قبيل دخوله بيت «الأخ الأكبر» «سيكون توني بلير في معضلة... ففي جانب منه يريد التخلص مني مبكراً حتى لا أحقق نصراً آخر وعلى الجانب الآخر طالما أنا في الداخل هنا فسأتركه وحده».

وأشار ناطق باسم القناة الرابعة إلى أن «مشاركة غالاوي أمنت للحلقة الأولى مشاهدة 7,6 مليون شخص». وإذا بقي «سعادة النائب» في البرنامج حتى نهايته سيعني أنه سيتعرض للتأنيب في مجلس العموم البريطاني بسبب عدم حضوره الجلسات من دون إذن

مشروع ولأنه «يتلهى على حساب الشعب الذي يدفع له أتعابه لتمثيل ناخبي دائرته الانتخابية»[1].

رئيس وزراء بطل في «تلفزيون الواقع»

أما في تايلاند، فإنَّ تلفزيون الوقاع لا يجمع نجوماً في الفن ولا أزواجاً يتحدثون عن حياتهم الخاصة بل يكشف رئيس الوزراء وهو يطهو لقرويين أو يقدم الفطور لرهبان بوذيين. وفي برنامج «في الكواليس: رئيس الوزراء». يؤدي رئيس الوزراء التايلاندي تاكسين شيناواترا الملياردير الذي تملك أسرته إمبراطورية للاتصالات. دور تايلاندي بسيط يعيش في منطقة إيسان التي تعتبر واحدة من أفقر مناطق البلاد. وذكر رئيس الوزراء أن هذا البرنامج المتلفز هو «بمثابة تعليم على مسافة» ويرمي إلى تدريب كبار الموظفين في الدوائر الحكومية. وعبر البرنامج التلفزيوني، سيستمع الحكام للإقليميون والمسؤولون الحكوميون إلى أحاديثه مع القرويين باعتبار أنها «فروض مدرسية» حول أفضل طريقة لمكافحة الفقر[2].

ابنة تاتشر تفوز بجائزة لتلفزيون الواقع

وفي أجواء ليست بعيدة عن السياسة، فازت كارول ابنة رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت تاتشر بالجائزة الأولى في أحد برامج تلفزيون الواقع بعدما تغلبت على عدد من المبتدئات في عالم الشهرة.

وأعلنت كارول وهي صحافية ومذيعة بعد فوزها بالبرنامج الذي

---

(1) الحياة 8 ـ 1 ـ 2006.

(2) البلد 24 ـ 1 ـ 2006.

يدعى (أنا مشهورة.. أخرجني من هنا)، وهي مسابقة يتعين على من تخوضها البقاء على قيد الحياة في غابة في أستراليا: «إنني مندهشة ومذهولة تماماً».

وشاركت عشر متنافسات من الطامحات في الشهرة في البرنامج الذي يهاجمه النقاد بدعوى أنه مرحلة متدنية جديدة في البرامج التلفزيونية التافهة.

لكن البرنامج يحظى بنسبة مشاهدة مرتفعة. ويتعين على المتسابقات القيام بسلسلة مهمات شاقة كثيراً ما تأنفها النفس مثل التهام ديدان والسباحة مع الثعابين وجمع الطعام من الأشجار.

واستمتعت كارول بكل دقيقة من البرنامج ما يعكس روح الصلابة نفسها التي تحلت بها أمها التي كانت تعرف بـ«المرأة الحديدية» والتي كانت أكثر الساسة البريطانيين صلابة في الرأي وصراحة في التعبير عما يؤمنون به في القرن العشرين[1].

(1) البلد 7 ـ 12 ـ 2005.

الحيوانات
أُدخِلوا اللعبة!

أفضل خروف

الموجة العالمية تمددت إلى أكثر من عنوان، وطريقة حياة، حتى وصلت مع البعض حد إدخال الحيوانات في منظومة تلفزيون الواقع ففي كرواتيا استشاط الناشطون في حقوق الحيوان غيظاً لدى مشاهدتهم برنامجاً جديداً من تلفزيون الواقع على الإنترنت، يستطيع خلاله المشاهدون أن يصوتوا ويقرروا أي خروف يريدون إنقاذه من الذبح.

وفي البرنامج، يتم تصوير سبعة خراف في منزل في زغرب على مدى أربع وعشرين ساعة، حيث يدخل عليها الكتاب المشهورون ويقرأون لها أعمالهم الأدبية باستمرار.

وبعد ذلك، تترك اللعبة للمشاهد كي يقرر أي خروف يريده خارج البرنامج عبر التصويت طبعاً. وبعد إخراج الخروف من المنزل، على المشاهد إما تبني الخروف أو إرساله مباشرة إلى الذبح.

وقال الناشطون من منظمة «أصدقاء الحيوانات» إنَّ هذا البرنامج كان مروعاً، وأنَّ المشاهدين اضطروا لتبني الخروف تفادياً لذبحه. وطلبت المنظمة من المحققين البيطريين أن يتقصوا الأمر.

إلا أن سينيسا لابروفيتش المسؤول عن البرنامج قال: «لا أعذب

الحيوانات، بل أريد فقط أن يرى المشاهدون كيف يستخدم الناس في برامج الواقع ويتحولون خرافاً لا أكثر ولا أقل»[1].

أفضل قرد

كذلك وبعدما تعب المشاهد التشيكي من برامج تلفزيون الواقع التي تصور حياة البشر، سيتمتع اليوم ببرنامج واقعي يصور غوريلات في حديقة حيوانات براغ.

أما نجوم البرنامج فهي: غوريلا ذكر واثنتان من الإناث وغوريلا صغير وسيبث ابتداء من بعد غد. وسيصوت المشاهد عبر خدمة الرسائل القصيرة لانتخاب أفضل قرد وسيحصل القرد الرابح على 12 بطيخة.

وقال المسؤول عن حديقة الحيوانات فيت كاهل إن «البرنامج هو بدل ذكي لبرامج تلفزيون الواقع التي تتناول الإنسان، كما أنّ الأموال التي ستجمع ستستثمر في مشروع لحماية الغوريلات في افريقيا»[2].

أفضل فحل

أما في سوريا فقد تحولّ مزاد علني لبيع الماعز في الشمال السوري إلى محفل جماهيري يحاكي عروض الأزياء وبرامج تلفزيون الواقع... إذ حمل المزاد الذي نظم في بلدة كلي التابعة لمحافظة حلب اسم «فحل ستار» تيمناً ببرنامج «سوبر ستار».

وقال محمد جمعة شوشان أحد المشاركين إن رسائل الخليوي

---

(1) الحياة 17 ـ 9 ـ 2005.
(2) الحياة 5 ـ 11 ـ 2005.

القصيرة استخدمت في المزاد الذي شهد إقبالاً منقطع النظير لحسن تنظيمه وجودة العروض المقدمة فيه والتي كانت تقتصر على الماعز الشامي المعروف بتحطيمه أرقام البيع القياسية إلى درجة تخطى معها ثمن الفحل الذكر الذي فاز بلقب «سوبر ستار» حاجز المليون ليرة سورية (نحو 20 ألف دولار)[1].

وأضاف شوشان أن المشرف على العروض في المزاد راح يجرّ المواشي بخيلاء للفت انتباه المشاركين والحضور. ويعني أصحاب الماعز بأشعارها وقرونها وقوائمها في محاولة لإبراز رشاقتها وقدها الممشوق!

(1) الحياة 16 ـ 4 ـ 2006.

الكاميرات
تحتل الأرض

كاميرات بالملايين تتقفى تفاصيلنا اليومية

في روايته «1984» تحدث الكاتب البريطاني جورج أورويل عن دولة ذات نظام شمولي تراقب مواطنيها بدقة، صوتاً وصورة، وتتدخل حتى في أحلامهم. وتستعاد رواية أورويل تحت اسم «الأخ الأكبر» في كل حالات المراقبة اللصيقة للمواطنين.

بعد تفجيرات لندن والحصول على هوية المفجرين الأربعة من مراجعة سجلات كاميرات مراقبة المترو، أبدى رئيس الوزراء الأسترالي جون هوارد «إعجابه بالنظام الأمني البريطاني»، الذي يجعل من ساكن لندن على سبيل المثال ضحية كاميرات المراقبة 300 مرة في اليوم، حيث أنَّ هذه المدينة مرصوفة بثلاثة ملايين كاميرا مراقبة مرشحة لأن تصبح 25 مليوناً، بمعدل كاميرا واحدة لكل راشدين. وللمقارنة، فإن باريس فيها عشرون ألف كاميرا في الأماكن العامة وألفان في الشوارع. ولقد وصل الإعجاب برئيس الوزراء الأسترالي درجة، أعرب معها عن رغبته تزويد... أستراليا بالأنظمة نفسها. أما الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، المعروف بميوله الأمنية، فقد استلهم النظام البريطاني لإعداد مشروع قانون لمحاربة الإرهاب يتضمن بنداً هاماً حول استخدام متزايد لكاميرات، أو فيديو المراقبة، ولقد تداعت منظمات حقوق الإنسان في فرنسا لإعداد العدة لمواجهة شرسة وخصوصاً بما يتعلق بتزويد الضواحي المضطربة

أمنياً والتي يسكنها عادة الأفارقة والعرب على الأغلب، بعدد كبير منها[1].

في آب 2005 بدأت السلطات الفرنسية العمل بنظام مراقبة شوارع باريس بواسطة كاميرات فيديوية متطورة، باعتمادها لرصد كل شاردة وواردة في العاصمة بعد تزايد خطر التعرض لهجمات إرهابية.

وقد استغلت شرطة باريس هذا النظام لمراقبة حركة السير وتنظيمها، تداركاً للعرقلة المعتادة في ساعات الذروة.

دبي تحت العدسات

يضبط الشاب وقفته في المصعد. لقد قرأ للتو العبارة التالية المثبتة في مواجهته: «المصعد مزود بكاميرا مراقبة». ينظر إلى الفتاة، في جواره. يتبادلان ابتسامة «خبيثة». يحبسان النفس. ذلك أن وجود الكاميرا معهما، في مصعد مركز «برجمان» التجاري في دبي، حولهما إلى كائنين مطيعين، بمجرد خروجهما، يطلقان ضحكة مسموعة ويستعيدان حيويتهما.

ليست المصاعد في المراكز التجارية وحدها مراقبة بالكاميرات. في واقع الأمر، فإن أكثر من 1,4 مليون نسمة يعيشون في المدينة، على مساحة 3900 كيلومتر مربع، يتحركون يومياً تحت «حراسة» مئات العدسات الراصدة. تكاد دبي تكون كلها تحت العدسة. هذا ليس افتراضاً. الأرقام التي تسوقها «هيئة الطرق والمواصلات» تتحدث عن 1200 كاميرا مراقبة مثبتة عند التقاطعات الرئيسية في

(1) ضحى شمس، السفير 20 ـ 8 ـ 2005.

المدينة. أما حدودها، أي المنافذ الجوية والبحرية والبرية، فبيانات الإدارة العامة للعمليات المركزية في شرطة أبو ظبي تفيد أن أكثر من 104 كاميرات خاصة تحميها. هذا ناهيك عن 200 جهاز رادار مثبتة على طرقات دبي وحدها، تلتقط صور المتهورين في قيادة السيارات[1].

الأردن: كاميرات لضبط المخالفات

أما في الأردن فتقوم 16 مركبة تابعة لأمانة عمان تعمل على مدار الساعة مجهزة بكاميرات الكترونية محمولة بالسير في مختلف مناطق العاصمة لمراقبة المخالفات وتصويرها.

والهدف من ذلك هو «تحويل هذه المخالفات إلى دائرة السير لإيقاع العقوبة المنصوص عليها في القانون بحق مرتكبيها».

ونُقل عن رئيس قسم الإشارات الضوئية في أمانة عمان المهندس أحمد الخوالدة قوله إن «الهدف الأساسي من تطبيق هذا النظام هو التقليل من التجاوزات البيئية وتكثيف الوعي بأهمية المحافظة على النظافة العامة»[2]، مشيراً إلى أن «كلفة النظافة في العاصمة عمان تبلغ سنوياً نحو 15 مليون دينار أردني» (حوالي 21 مليون دولار).

وأشار الخوالدة إلى أنه «وفق نظام المراقبة الجديد تقوم الكاميرا بالتقاط صور للمخالفة المرتكبة وتدوين كامل المعلومات من حيث نوعها ومكان حدوثها ورقم ونوع المركبة المخالفة ومن ثم تحويلها

---

(1) إبراهيم توتونجي، الحياة 4 ـ 4 ـ 2007.

(2) م.ن.

للكمبيوتر الفرعي الموجود في السيارة وتنزيلها إلى الكمبيوتر الرئيسي في مكتب الرقابة الآلية في إدارة السير لتحرير المخالفة وتحويلها إلى محكمة الأمانة لتحصيلها»[1].

تايلاند والكاميرات المتطورة

وفي تايلاند أطلقت إحدى الشركات كاميرا لاسلكية متطورة تعمل من خلال بروتوكول الإنترنت ما يسمح بالعديد من خيارات المراقبة الأمنية وسيتم عرضها في أسواق الشرق الأوسط وهي تتمتع بقدرتها على الاتصال مع مركز المراقبة أو جهاز الإنذار إضافة إلى إشارة التخدير عبر البريد الإلكتروني وقد وصل حجم التبادل التجاري في العام 2005 إلى 791 مليون دولار مقارنة مع 73 مليون دولار عام 2000.

الولايات المتحدة بعد 11 سبتمبر

وفي الولايات المتحدة بلغ حجم سوق كاميرات المراقبة ما بين 5 و6 مليارات دولار بزيادة قدرها 2 مليار دولار عن معدلات ما قبل 11 أيلول من العام 2001 ويتوقع المشرفون على هذه السوق أن ينمو بمعدل أو بنسبة تزيد عن 25 في المئة وقد ظهرت تقنية جديدة خاصة بالكاميرات الموضوعة في المباني الفيديرالية الحساسة والموانىء الرئيسية والمطارات وهي تسمح بالتفرقة بين الناس والأمتعة التي يحملونها.

وعلى سبيل المعلومات لو قام شخص مثلاً بترك حقيبة أوراق في مصعد البنتاغون فإن الكاميرا سوف تتحرك تلقائياً في كل مكان

(1) الحياة 7 ـ 1 ـ 2007.

للبحث عن الشخص الذي ترك الحقيبة وترسل صورة الشخص إلى أجهزة خاصة يحملها حراس المبنى في أيديهم.

بريطانيا الأكثر تجسساً[1]

أما بالعودة إلى بريطانيا، فقد حذَّر مفوض الاستعلامات في الحكومة، ريتشارد توماس، من أن بريطانيا، التي تتغنى باحترامها للحريات الشخصية، تتجه لأن تصبح «من أكثر الدول تجسساً على مواطنيها» في العالم.

وأفادت وثيقة مؤلفة من 140 صفحة بعنوان «تقرير حول المجتمع تحت الرقابة» أن «نشر كاميرات المراقبة وتحليل عادات السكان في مجالات شراء البضائع والاستهلاك وتسجيل تحركات الأشخاص وهواتفهم الخلوية واهتماماتهم في مجال الإنترنت باتت جزءاً من حياة البريطانيين».

وقال توماس، وهو مدير «المفوضية من أجل المعلومات» التي أصدرت التقرير، «أخشى اليوم أننا بتنا نعي أننا أصبحنا مجتمعاً تحت الرقابة الدائمة».

ويوضح التقرير أن غالبية آليات الرقابة المستعملة مشفرة بحيث لا يشعر المواطنون بوجودها. ويتوقع أن تتزايد هذه الرقابة المتصاعدة على الأشخاص في السنوات العشر المقبلة. وأشار التقرير إلى أن عدد الكاميرات بات يبلغ حالياً 4,2 ملايين في بريطانيا بمعدل كاميرا واحدة لكل 14 شخصاً.

ويحذر التقرير، الذي أعدته منظمة مستقلة مكلفة الدفاع عن حق

(1) الاخبار 3 ـ 11 ـ 2006.

المواطنين البريطانيين بالحصول على المعلومات الرسمية، من «الرقابة المعلوماتية» التي يمكن ممارستها عبر بطاقات الائتمان والهواتف النقالة وسائر البطاقات التي تستعمل لأهداف تجارية.

وأشار توماس إلى أن «هناك المزيد من المعلومات التي يتم جمعها وتوزيعها واستعمالها عبر التدخل في مجالنا الخاص وتبنى عليها قرارات تؤثر مباشرة على حياة الناس».

وحذر توماس من أنه يمكن أيضاً ارتكاب «أخطاء يترتب عنها عواقب وخيمة»، كالأخطاء حول الأشخاص واعتبار معلومات خاطئة صحيحة، والشكوك التي تعد بمثابة وقائع أو اعتداءات على الأمن. وقال، لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، «نحن الآن نواجه مجتمعاً مراقباً. الأمر لا يتعلق بوجود الكاميرات في الشوارع ومثل تلك الأمور فحسب، بل إن التكنولوجيا تراقب تحركاتنا وأنشطتنا». وذكر أن البريطانيين يتركون «بصمة الكترونية» وأن هناك حاجة لإجراء مناقشات من أجل خطوط واضحة لمعرفة ما هو مقبول.

وقال تقرير شبكة دراسات المراقبة إن المخاوف الرسمية من الإرهاب أدت إلى زيادة المراقبة وربما تؤدي إلى عدم ترك أي نشاط دون مراقبة على مختلف المستويات. وأضاف «هناك مخاطر على سلامة الفرد. يمكن انتهاك خصوصيتنا».

كاميرات تكشف المستور

ونبقى في بريطانيا حيث كشفت صحيفة «صن» أن الشرطة البريطانية ستنصب كاميرات تعمل بالأشعة السينية في أعمدة المصابيح الكهربائية، لتلتقط صوراً تظهر المارة عراة، ضمن إجراءات جديدة تعتمدها الشرطة للكشف عن الإرهابيين والمجرمين.

وأفادت الصحيفة أن المسؤولين البريطانيين يعدون أنفسهم للتعامل مع موجة الغضب العارمة التي ستفجرها هذه الخطوة المثيرة للجدل، والتي أدرجت في توصيات أعدتها وزارة الداخلية وقدمتها إلى مجموعة العمل المولجة شؤون الأمن والجريمة والعدالة والتابعة لرئيس الوزراء توني بلير.

وأوضحت الشرطة أنها اطلعت على مذكرة حكومية يعود تاريخها إلى السابع عشر من كانون الثاني (يناير) الجاري لمحضر اجتماع ناقش إمكان تثبيت كاميرات في أماكن غير مرئية، كمصابيح الأعمدة الكهربائية، قادرة على رؤية ما وراء ألبسة المارة الأمر الذي سيسهل اكتشاف الأسلحة والمتفجرات.

وأشارت الشرطة إلى أن المسؤولين البريطانيين اتفقوا على مشاهدة النساء الشرطيات فحسب لصور النساء العارية التي تلتقطها الكاميرات[1].

غوغل يمسح الأرض

في السفير (23 ـ 8 ـ 2005) كتب غسان رزق عن شاشة الكمبيوتر، التي باتت الثانية في الترفيه البصري في منازلنا. وقد خطت أخيراً خطوة عملاقة باتجاه قلب قواعد لعبة الإمتاع اليومي بصرياً للجمهور المسجون في مدن الإسمنت والإسفلت والكهرباء والتكنولوجيا في القرن الواحد والعشرين. في علب المجتمعات ما بعد الصناعية، أعلنت شاشة الكومبيوتر أنها دخلت اللعبة البصرية،

(1) الحياة 30 ـ 1 ـ 2007.

التي انطلقت منذ اختراع الكاميرا، فباتت تتفرج على الجمهور الذي تغرق عينه، تدريجياً، في إدمان الشاشات المتفشي باضطراد.

فقد أعلن موقع شركة «غوغل» Google، محرك البحث الأكثر انتشاراً في العالم، عن خدمة «أرض غوغل» Google Earth. وتتألف من برنامج يحصل عليه الجمهور من الموقع، ويضعونه على كومبيوتراتهم. وعند تشغيل البرنامج يعطى المستخدم إمكانية طلب صورة عن أي مكان يريده في العالم. كل ما عليه هو كتابة عنوان المكان الذي يريد مشاهدته. ويتولى «غوغل» البحث عن الصور المتوافرة عن ذلك المكان. ويعطي أقرب صورة يعثر عليها. مما يعتبر الحد الأقصى راهناً لاقتراب عين الكومبيوتر من أمكنة الجمهور في مدن العالم. وتتشابه «أرض غوغل» مع «الأرض الافتراضية» Virtual Earth، البرنامج الذي أعلنت عنه شركة «مايكروسوفت»، ووفرته عبر موقع «إم إس إن» msn.com. والنتيجة؟ فيما أنت غارق في البحلقة في شاشة الكومبيوتر، مستمتعاً ببراءة المشاهد من جهة، وباللذة الخبيثة الآتية من الرغبة في استراق النظر على الجار (القريب والبعيد)، فإن عين الكومبيوتر تراقب الجميع، وتصوّر الجميع، وتتفرج على الجميع. ولأننا نبوح إليها برغباتنا الدفينة في التلصص، فإنها أيضاً «تتفرج» على رغباتنا الدفينة وذواتنا الخبيثة. الجمهور مكشوف أمام الشاشة التي يتفرج عليها، ربما أكثر بكثير مما ينبغي! يجدر القول أيضاً إن البعض لا يرى في الأمر انقلاباً في علاقات اللعبة، بين المتفرج والشاشة، بل إنه مجرد إعلان صريح عن حقائق لا تراها العيون بسهولة.

لنفكر أبعد قليلاً، من أين تجيء الصور؟ تعلن الشركتان، «غوغل» و«مايكروسوفت»، أنهما تحصلان على الصور من قاعدة واسعة من

الصور التي تلتقطها باستمرار عشرات الأقمار الاصطناعية والطائرات الأميركية. إنها عين الولايات المتحدة، «الأخ الأكبر» في عالم العولمة غير السعيدة، تتفرج على الأرض، علينا، على مدار الساعة.

ويخطر في البال أن عالم الاجتماع الأميركي، بول فيريليو، قد وضع مؤلفاً عنوان «ماكينات الإبصار»، ليبين فيه رأيه القائل بأن التلفزيونات هي أجهزة ترانا، وليست أجهزة نتفرج عليها. تشبه «أرض غوغل» ما نراه يومياً على قناة «العربية»، «العالم بالصور»، وهي صور حية لمدن من العالم تبث عبر قناة تلفزيونية عالمية اسمها «تلفزة الأرض» Earth TV! ويبدو أن الكومبيوتر والتلفزة باتاً لا يقنعان بأقل من شمولية عيونهما للكرة الأرضية بأسرها. إنها العولمة وقد صارت نصاً بصرياً جديراً بالنقاش عن حدود سلطاته على أهل الكوكب الأزرق... ومصدر هذه السلطات. من أعطى هؤلاء الناس كل هذه السلطة؟ إلى أي قانون، غير القوة المطلقة، يستندون في أفعالهم؟ هل تمت مناقشة شعوب الأرض في حق «الأخ الأكبر» في تصويرها وتسليط كاميراته وعيونه عليها؟

الأبعاد القانونية

حول الأبعاد القانونية للكاميرات المتفشية في الأماكن العامة كتب[1] المحامي زياد بارود قائلاً:

أمام الشاشة الصغيرة في أيام عزّها، كانت «الكاميرا الخفية» ترسم على وجوه المشاهدين ابتسامة. أما اليوم، فقد باتت الكاميرا «غير الخفية» (على أحد؟) تنقل وجوه «المشاهدين» إلى مخزون

(1) الاخبار 28 ـ 10 ـ 2006.

ذاكرة ما، في حاسوب ما، خدمة للأمن. هكذا يقال. في زمن الجريمة «المتطورة»... إلكترونياً. وبين الأمن وضروراته والحرية ومقدساتها، أقر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة في 2006/10/19 نظام المراقبة بالكاميرات في بيروت الكبرى، بعدما اتفق على أن يكون النظام أرضياً ومتصلاً بشبكة الألياف البصرية لا بواسطة الأقمار الاصطناعية «منعاً لأي خرق أمني قد تتسلل منه إسرائيل»... اعترض وزير الداخلية والبلديات على عدم شمول الشبكة مناطق خارج بيروت الكبرى، لكن أحداً لم يعترض أو يتحفظ على الآلية القانونية التي تسمح بتطبيق المبدأ المذكور، في ذهول كامل عن الشروط الدنيا التي تستوجبها حماية الحريات الفردية وربما العامة. كأن العنوان ذاته يتكرر: «لا صوت يعلو صوت المعركة»، و«الأمن قبل الحريات»، وهي نغمات أتقنت تردادها على مدى عقود «النكبة» و«النكسة» أنظمة مهترئة أمعنت في شعوبها مراقبة من دون طائل... لا لأن المراقبة غير أساسية وضرورية وحتمية ربما في بعض الحالات، بل لأنه شتان ما بين المراقبة ذات المعايير القانونية الثابتة والشفافة وما بين المراقبة البوليسية! لا لأن مبدأ المراقبة بالكاميرات ليس مقبولاً في المطلق، بل لأن آلية تطبيقه تستوجب التوقف عند ضمانات دنيا.

وعلى الرغم من أن الارتجال لا يزال يحكم حركتنا التشريعية والتنظيمية، فلا بأس من التذكير، ولو باختصار، بأن إقرار نظام المراقبة بالكاميرات هو قرار ينطوي على تقييد للحريات، ولا سيما الفردية منها، ما يجعل تدخل المشترع في إقراره أمراً واجباً. وبالفعل، وأسوة بأي تدبير أو إجراء مقيد لأي من الحريات المكفولة دستورياً، فإن نظام المراقبة بالكاميرات يحتاج إلى نص تشريعي

يصدر عن مجلس النواب ينظم آليته ويضمن عدم تخطيه الغاية التي من أجلها تم إقراره. هكذا، مثلاً، نص الدستور اللبناني على تنظيم حرية الجمعيات بموجب قانون (المادة 13)، وهكذا أيضاً نصّ الدستور، بوضوح كلي، على أن «الحرية الشخصية مصونة وفي حمى القانون...» (المادة 8). وعلى ذلك، فإن مبادىء التشريع تملي ضبط إيقاع المراقبة بموجب قانون يصدر عن السلطة التشريعية ويوكل أمر تطبيقه إلى السلطة التنفيذية، ضمن ضوابط وشروط واضحة وشفافة تحمي وتنظم، إن لجهة تحديد مواقع وضع الكاميرات (أماكن عامة، مبانٍ حكومية...) وإن لجهة المرجع الذي يتلقى الصورة ويخزنها ويديرها، وإن لجهة مصيرها ووسائل (بل حدود) استعمالها وإن، أخيراً، لجهة ضرورة إعلام الجمهور بوجودها. وهذا تحديداً ما أقرته دور عدة تزايدت فيها المراقبة بالكاميرات تزايداً مطرداً. فقد وضعت المملكة المتحدة عام 1998 قانوناً يرمي إلى حماية المعلومات (Data Protection Act)، علماً بأن عدد الكاميرات المنتشرة بين لندن وسائر المدن يصل إلى حدود أربعة ملايين كاميرا! وفي فرنسا، حيث عدد الكاميرات قدر عام 2002 بحوالي مليون، نظام متشدد ينطوي على ترخيص مسبق.

أما في لبنان، وخارج الجدل الدائر حول كاميرات المراقبة المضادة للقذائف والاغتيالات، فإن ثمة قرار. يتيم. صدر في 13/7/2006 عن الغرفة الثالثة لمحكمة استئناف بيروت (برئاسة القاضي د. مروان كركبي) في موضوع كاميرات مراقبة كانت قد وضعتها شركة خاصة في إحدى بنايات بيروت. هذا القرار. المبدئي. حمل في تعليله ما يمكن تعميمه على آلية وضع كاميرات المراقبة برمتها، عندما ذكر بالحماية الدستورية للحريات الفردية وما ينتج

منها، وهو يؤكد، من هذه الزاوية، ضرورة تدخل المشترع في التنظيم والحماية.

«لا تشريع إذاً لسلعة يبدو أن الإقبال عليها لا يقاوم. وتتزايد الأخبار عن انحراف استخدامات هذه التقنيات في العالم: فمن كاميرات مدسوسة في غرف قياس ملابس النساء أو حتى في الحمامات العامة ومراكز التجميل، والتي تضخّ «بضاعتها» في سوق سوداء للتسجيلات أو حتى على شبكة الإنترنت، إلى آخر ما توصل إليه «الفن» في بريطانيا تحديداً أي ما يسمى بظاهرة «هابي سلابينغ» أي «الصفع السعيد». ومقومات «الهابي سلابينغ» أن تركب كاميرا بشكل خفي وأن يعتدى بالضرب على أحدهم من الجنسين، ابتداء من الصفع وحتى الضرب المبرّح، وأن ينشر الفيلم على شبكة الإنترنت للمتعة السادية للراغبين! هذا بوجود قوانين، فكيف من دون حتى القوة الرادعة لوجودها؟ فلقد أخبرتنا مصادر عدة أن تجار هذا النوع من التقنيات، لا يتورعون وفي ظل غياب أي ضوابط قانونية عن تقديم «مروحة خدمات» إلى الزبائن تبدأ بمراقبة الموظفين من دون علمهم ولا تنتهي بكاميرات مخفية في تمديدات النور والتكييف في.. مراكز تدليك وتجميل»[1].

الخصوصيات على مشرحة العدسات

في حوار معه لجريدة السفير[2] يقول جورج رباط، وهو مدير شركة «انترغرايترز» أنه تحول إلى بيع وتركيب كاميرات المراقبة منذ العام 1999 «اليوم نحن نعمل بالأمن أكثر من كل شيء»، أما

---

(1) ضحى شمس السفير 20 ـ 8 ـ 2006.

(2) السفير (المرجع السابق).

السبب؟ فيقول إنه لاحظ وجود «هامش قوي للعمل والتطور في لبنان» يقصد في هذا المجال. وسرعان ما تبين لرباط أنه كان على حق «ازداد الطلب علينا حتى أصبحت نسبته 80 من عملنا في مجال الأمن، مقابل 20٪ للاتصالات. وخصوصاً بعد اغتيال الرئيس الحريري ». ويضيف أنه «قبل 14 شباط كان هناك طلب: يعني أي مجمع أو ورشة كبيرة أو مؤسسات الدولة.. باركينغ، مداخل أسانسورات، النوادي، المحلات، البنايات الفخمة، كل شيء.. اليوم صار الأمن ضرورة، وخصوصاً أن الكلفة لم تعد عالية. يعني بدلاً من توظيف عشرة حراس توظفين اثنين فقط وتركيب كاميرات».

ويعلل رباط هبوط الكلفة في أنظمة المراقبة «من ثلاث سنوات حتى الآن بسبب التنافس العالمي. فهذا النوع من الأنظمة الأمنية يزدهر على صعيد العالم أجمع بشكل كبير. كما أن كل تكنولوجيا في البداية تكون غالية ثم ترخص».

ويؤكد رباط الذي ركبت شركته أنظمة مراقبة «سجن رومية بكامله جواً وبرة» و«داير مدار قوى الأمن الداخلي» و«باركينغ المطار» إضافة إلى الكاميرا التي صورت الشريط «الشهير» الذي صورته كاميرات «نيو تي في» في اغتيال جورج حاوي، الذي رسم على أساسه صورة للمشتبه به، أن القطاع الخاص أهم بكثير من القطاع العام كسوق لهذا النوع من التقنيات.

وعندما سُئل رباط عن المعايير تتحكم بوضع الكاميرات في الأماكن العامة، لا تخطر ببال الرجل إلا المعايير التقنية «إذا كنا نتكلم عن القطاع العام، فالأمر ليس من شأننا: يقولون أين يريدون وضع الكاميرات. فنضعها.

نلفت نظره إلى أن سؤالنا هو عن المعايير القانونية. فإن كان هناك مبنى سكني مثلاً، تستأجر شركة أو مصرفاً منه طوابق، وتريد هذه الشركة وضع كاميرا مراقبة على المدخل المشترك، ومن شأن ذلك أن ينتهك خصوصية حياة الجيران فهل يراعون هذه المقاييس؟ يجيب رباط أن الموافقة من الجيران يجب أن يأخذها الزبون وليس هم. وأنه «إذا قال الزبون إنه يريد أن يركب كاميرا هنا، نركبها في المكان الذي عينه. لن نسأله إن كان قد سبق وأخذ موافقة. طبعاً إن لم يكن قد أخذ موافقتهم، سيقومون ضده فيفككها»! ويستطرد رباط كمن يتفحص ذاكرته أنه «لا مقاييس بتاتاً، وأن طلب زبون شيئاً محدداً فنحن مجرد تقنيين ونعتبر أنه «يعرف ما الذي يفعله».

أما عن وجوب إعلام الناس بأنهم مراقبون كما تنص عادة القوانين في البلاد التي تحترم حقوق الناس، فقد قال رابط إنه «نادراً في لبنان ما نرى ملصقاً يعلم الناس بأنهم مراقبون». معتبراً أنه «مع أو من دون إعلان فالكاميرا ظاهرة»! وفي حال لم تكن ظاهرة؟ يرد «في 90٪ من الأوقات هي ظاهرة. لكن عندما تكون هناك كاميرا مخفية لغرض معين كمراقبة موظف معين مشكوك بأمانته، فهو بحاجة إلى كاميرا مخفية ليحدد السرقة..»!! ولكن ألا يحتاج هذا النوع من المراقبة إلى موافقة جهة ما؟ يعترف الرجل بأنه لا يعرف. فخلال كل سنوات خبرته في لبنان أي منذ العام 1999 «ولا مرة صادفت هالشي». ويميل مدير «انترغرايتر» إلى تبرير مراقبة الموظفين من دون علمهم «في النهاية هو يراقب موظفه ضمن دوام العمل، لا يضع له كاميرا في البيت أو السيارة. هذا شيء لحسن أداء الشركة»!!

لكن رباط يحس بضرورة سد النقص في الفراغ التشريعي المريع.. لجهة «تقنين الاستيراد وحصر ذلك بالمحترفين الذين يحملون رخصاً». ويختم متمنياً «يا ليت يكون عندنا تشريعات مثل أوروبا، فيعرف المحترف والمستهلك ما هي حقوقه وواجباته». ويسر مدير الشركة الشاب لنا بأنه كثيراً ما رفض تركيب «أنظمة ملتبسة المهمة».

ويضيف أنه في مرة «ركبنا نظام مراقبة ولما عرفنا أنه ينتهك الخصوصيات فككناه». لكنه رفض الخوض في التفاصيل قائلاً «لكن تصوري لو لم نكن محترفين. أحياناً نتلقى عروضاً تمس حميميات الناس المطلوبة مراقبتهم، وهذا شيء مرفوض. بقانون أو من غير قانون، أخلاقياً نرفضها».

نهاية الفكرة؟

انحسار الموجة

هل بدأ تلفزيون «الحقيقة» أو «الواقع» يتعرض للإخفاقات والانتكاسات بعد هذه الجماهيرية الواسعة؟ وهل مستقبله مهدد بالانهيار والفشل؟ تلك التساؤلات وغيرها بدأت تظهر على الساحة الإعلامية بعد بروز ردود فعل قوية حول ماهية تلفزيون الواقع، وأهمية هذه التساؤلات تكمن في أنها صدرت من بعض صناع برامج تلفزيون الواقع أنفسهم ومن باحثين وإعلاميين يعملون في الإعلام المرئي أمثال: كريستوفر دنكلي (صحافي ومذيع وناقد تلفزيوني في صحيفة فاينتشال تايمز) وفكتوريا موبليبك (كاتبة ومخرجة تلفزيونية)، وتدور هذه الردود حول موضوعات عدة، فمن جهة يشير المدافعون عن نوع كهذا من البرامج إلى أن طابعه الجماهيري الديموقراطي يتيح لهؤلاء المهمشين فرصة جديدة وغير مسبوقة للظهور على شاشة التلفزيون كأبطال ونجوم، ومن جهة أخرى ينظر إليه على أنه يقدم خليطاً من التفاهة والإباحية. ويذهب كريستوفر دنكلي إلى أبعد من ذلك ويصفه بتلفزيون «الإذلال والمهانة» والسبب في رأيه هو «تعمده البذاءة ودفع الشرائح الواسعة من الجمهور إلى الغثيان. ذلك أن صناع تلفزيون الواقع يتدخلون علانية من البداية وحتى النهاية ويحددون كل شيء في شكل ملائم لغاياتهم كما هو الحال في عروض هزلية وألعاب ومسابقات».

وتسأل فكتوريا موبليبك هل عندما تقدم الكاميرا مستويات عدة

من الحياة الواقعية هو الواقع أم هو شكل من أشكال الفضائح وهل الشخصيات المشاركة هم شهداء أم نجوم جدد؟ ثم تجيب: «في تلفزيون الواقع الآن يتلصص المشاهدون على الموت ومناظر بتر الأعضاء وهو بذلك يغطي الكثير من الأخطاء ويخلق بيئة مصطنعة واضحة ثم يضع فيها الشخصيات ويسجل النتائج»[1].

لقد شاع أن التلفزيون مع الفضاء المفتوح قد جعل العالم قرية صغيرة وهناك من يعد ذلك امتيازاً للإنسان وإثراء لعالمه، وهناك من يرونه إفقاراً لعالمه وتعاسة، لأن التلفزيون في نظرهم يكرس صوراً وسلوكيات نمطية على الواقع ويخلق حالة من التزييف للوعي عند الناس في شكل سطحي ولا يحاول الارتقاء بالذوق العام إلى درجة دفع برنار كلارك أحد المشاركين في كتاب «تلفزيون الحقيقة» الذي ترجمه الدكتور أديب خضور ويقدم آراء ومواقف حول تلفزيون الواقع إلى القول أنه «لم يعد واقعياً أو حقيقياً أكثر من وجبة همبرغر وربما أقل منها قيمة غذائية وليس ثمة أي شيء يدعى تلفزيون الواقع». ويشير كلارك إلى أن «المسلسلات الترفيهية والوثائقية الهجينة الملائمة للسوق الواسعة والمتنكرة تحت قناع شرائح من الحياة الواقعية تبين أنها مخادعة ومضللة أكثر من إنتاج وقائعي»[2].

وبعد كل هذا هل يمكن أن ينهار تلفزيون الواقع ويفقد بريقه؟ وهل يشهد تراجعاً في شعبيته؟ على رغم كل الانتقادات التي قالت أنه ليس سوى مجرد بدعة عابرة في مسار الترفيه وعبارة عن

---

(1) سليمان اوصي، الحياة 9 - 1 - 2006.
(2) (المرجع السابق).

ومضة أو كما سماه بعضهم بصندوق الخدع أو الإذلال أو كوجبة مستهلكة، البث اليومي والمباشر لتلفزيون الواقع يدل على أن هذا النوع بات يشكل سمة لمعظم الفضائيات والشغل الشاغل لملايين المشاهدين بخاصة مع تدفق سريع لأنواع جديدة من برامج الواقع ولعل آخرها كان عرض أفلام جنسية وحميمية تتناول الحياة الخاصة للنجوم من دون أن يؤثر هذا الأمر في مستقبلهم المهني بل يصبحون أكثر شهرة ونجومية بعدما يتعرف المشاهدون على تفاصيل دقيقة من حياتهم الخاصة[1].

(1) المرجع السابق.

الفهرس